هــــالة سرحـــان

أمريكا.. خبط لزق

مــذكرات طالبــة بعثــة

دار الشروق

أمريكا.. خط الزرق

مذكرات طالبة بعثة

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

© دار الشروق

أسسها محمد المعلّم عام ١٩٦٨

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس ٨٦٧٥٥٥ - تلكس SHOROK 20175 LE

مُقَــدّمَة

بقلم الدكتور فوزى فهمى أحمد

تربطنى بالدكتورة « هالة سرحان » ـ مؤلفة هذا الكتاب ـ علاقة «الخوجة » « بالتلميذة » . بدأت منذ سنوات دراستها بأكاديمية الفنون، ولأن ملامح بنيتها الذهنية تدفقت مبكراً ، فقد تميزت وتفردت، ولأن بنية الذهن قد تظل مجهولة من قِبَل صاحبها ، فإن من وظيفة «الخوجة » المربى أن يعمق الإحساس بها بمد مرآة مكبرة لتنعكس فيها .

لكن هذه الغادة الصغيرة كانت تدرك أيضاً تفرد عقلها ، وتمارس العديد من النشاطات بحيوية وقدرة على إدراك ما هو مديد يستصعب على النظر لمن فى مثل سنها ، وتعيش حياتها بملء الثقة والصراحة ، ولديها علامة فارقة تميزها رافقتها فى نموها وتطورها ، وهى طاقة «تمردها » ، وأعتقد أن طاقة التمرد هى التى شكلت استقلالها الذاتى ،

بل هى ســـر تلك القوة الحيويـــة المتعاقبـــة التى لم تتخـل عنهـا فى مراحل عمرها .

تخرجت وعينت معيدة بأكاديمية الفنون ، وشقت طريقها ، ودفعت إليها بالعديد من الكتب التى تتنـاول المشكلات من حولنا ، كى توسع تصورها لما هـو ممكن ، وتزيد من طرحها للأسئلـة ، وكثرت أسئلتها وصارت عصية على التأجيل وتأجج وجودهـا قلقا وتشوفا ، وظننا أن سفـرها لبعثتهـا قد يستـوعب ما لم يبـد لها كافيـاً فى إطار حيـاتها ، وسافرت ، وما بين سفرها وعودتها مساحة من الحياة عاشتها تجلت فيها « طـاقة التمـرد » أمام غلظة العـالم المبتذل ، ورفضهـا أيضاً أن تكون « مـدجنة » أو أن تقبع فى غرفـة الانتظار مهما كان البـاب الذى سيفتح لها ، وألقت لنا استقالتها وسددت كل ما صرف عليها من مبالغ عن بعثتها بامتياز المسئولية الخارقة ، كخلاص لها وضمان لحريتها التى هى لها ألذ من مذاق العسل ، وكان تسديدها للدين صك الارتياح والبهجة كى تختار لنفسها طريقها لتنطلق : محض قلم يوقظ الإنسان من تعاسته ويعتقه من القيود ، بإضاءات باهرة بما يعرضه من أشياء مألوفة فى صور غير مألوفة .

ويتميز كتابها الـذى بين أيدينا بأنه مجموعة من الصـور الدرامية المتراكمة تتـوالى وتتصل لترصد « الآخـر » مقابل « الـذات » فى تجربة

الاغتراب ، لكن بمنهج يقوم على الرغبة فى المعـرفة كتوسيع للذات ومد لحدودها . هـذه المعارف التى تعـرضـها من خـلال موضـوعاتها التى اختارتها ، وتـدعونـا إلى تأملهـا ، قد تتعـدى إطار المألـوف فى الحياة الاجتماعية والثقافيـة التى ارتبطت بها ، لكنها تعرضها لتـوقظ فينا ـ بفعل المقـارنة . الشعـور بالتعجب ، وتستنهض فينـا موقفـا مماثـلا لموقفهـا ، حين غادرت دائرة أسرتها ووطنهـا ، وراحت بعين فاحصـة تشكك فى ذلك « النمـوذج » للحضارة التى عـاشت فترة من الـزمن فى ظلهـا ، رافضة أن تتسلط عليهـا منظومـة قيمها ، دون أن تتقـوقع فى شرنقـة ، أو مجمـوعـة زجاجيـة تتطلع من خـلالها إلى مظـاهـر تلك الحضارة ، أو تقرأ عنها فى كتاب ، بل تمارس حياتها وتنخرط فى دولاب العمل اليومى لهذا المجتمع ، وتتوازى معه بما تحمله من رؤية تخالفه، وفقا لإرثها الاجتماعى ، وتتمرد بخصائصها الذاتية عليه .

وهى تحكى وتسرد لنا حكايتها دون أن تخلق أو تتبنى ـ ككاتب ـ دور «السّارد » أو « الـراوى » ، بل إنـها واحدة من الشخصيـات التى تؤسس عالم هذه الحكايات المتنوعة ، إنها هنا ليست « الراوى» المفارق لما يرويه ، بل « الراوى » المتماهى الذى عاش ما يرويه بعلاقة عضوية وحيويـة ، لا تفصلها مسافـة أو زمان ، تتجلى مشاركـة فى الأحداث ، تصرح بكل شىء ، صوتها عال بوجهة نظرها ، لاتعرف شيئاً عن هذا

المجتمع ، وتندهش وتتعجب وتصرخ أحيانا عندما «تعرف » ، لتمر لنا خطابها ، حتى تبدو هذه الحكايات دونها لاقيمة لها . إذ صارت هي « البؤرة » التى تكسب الأحداث والحكايات مذاقا وإدراكا خاصا .

ورغم أن د . هالة سرحان قد تحررت من فكرة « الحضاريين المركزية » ورفضت سلطتها وهى تعيش فى رحابها ، إلا أنها تتمحور حول ذاتها أو أعلنت خروجها من التاريخ كمن حكت عنهم كتابها ، بل إنها تنتقد الأمور بموضوعية ، فتطرح نماذج لتفسخ شكل العلاقات الإنسانية بحس فكاهى تمتلكه ، صور لنا ذلك المأزق الذى وصلت إليه تلك الحضارة . وهى تواجه كل ذلك بانتماء وتمايز تدركه وتعيه ، يتمثل فى خلفيتها الثقافية التى تغذى تماسكها ومقاومتها والذى لا تشكل فيه الثروة أو الالتزام الحماسى مكانا ، بل إيمان لكل ثقافة قيمًا وتقاليد خصوصية وروابط عاطفية ، وأن الإصابة الكارثة ليست فى « الآخر » الماثل ، بل فى « الذات » حين ينخر فيها السوس تدريجيا ، فتفقد معنى حياتها ولا تعد تملك عيونا وفكر وطاقة وتصبح قابلة للاغتصاب .

إن الكتاب لا يصور صدمة أو انبهار فتاة مصرية أمام ما هو مقارنة بما لم يكن لها متاحا فى مجتمعها فتصاب بالاختلال الذى يفقدها وعيها ، بل يعرض طاقة فتاة مصرية أمام سلسلة من التحديات

والمعاناة لم تزعزع تـوازنها أو تشرخ أو تعمق فيها الإحساس بالنفس المبتورة ، أو تجتث جذورها فتسعى كى تتشبه « بالآخر » .

إنها فتاة منزوعة السلاح ، لكنها قادرة على الاستيعاب والتعايش دون أن تفقد هويتها الخاصة ، ولديها قدرة المواجهة التى لا تخفيها ، وسعة الأفق التى تتعامل به مع التقنيات المستحدثة مقتنعه بأن «النموذج الحضارى » غير قابل للتعميم ، فى حين أن « تقنياته » قابلة للنقل والتعامل .

إن الكتاب يضم تجربة خصبة تنعش قدرتنا على المقارنة ، وتحقق قراءة واعية تحذرنا من أن نقع فى الفخ المنصوب وغـوايته ، فالكاتبة تحمل ثقافتنا مطبوعة بالحديد المحمى فى ذاكرتها ، ويستطاب لها أن تصرخ بوجعها عندما يقترب من منظـومـة قيم ثقافتها مغتصب ، وتستخدم لغة منتقاه لاذعة ، وإشارات تـوقف فى الصياغة تعكس فكرها ، ولغتها فى العموم لغة حارة كاشفة متمايزة تماما كبنية عقلها التى هى نقطة انطلاق موهبتها .

وللقارئ سلطة ـ كما يرى النقد المعاصرـ على النص المطروح ،لذلك فإننى أتركك أيها القارئ لتمارس حقك .

د . فوزى فهمى

رئيس أكاديمية الفنون

أمريكا.. خبط لزق !

عشرة سطور غيرت مجرى حياتى

ونقلتنى من شـارع الهرم المزدحم بالعمارات وعـوادم السيارات والناموس إلى شارع شجرة الكافور الحزينـة فى مدينة لويفيل بولاية كنتاكى، أرض الفلاحين الجوانى أو الغرب الأوسط الأمريكى.

نعم عشرة سطور

نقلتنى من الشرق الأوسط إلى الغرب الأوسط

عشرة سطور فى برقية :

«منحة شخصية من جامعة لويفيل ـ قسم الدراما ـ منحة تعليمية تقوم فيهـا الجامعة بـدفع مصاريف الدراسـات العليا مقـابل قيامك بالتدريس بالجامعة، مادة الحركة المسرحية».

رئيس قسم الدراما

د. ألبرت هاريس

موعد الوصول : ٢٣ أغسطس

بدء الدراسة: ٤ سبتمبر

جدول المحاضرات : الأحد ـ الثلاثاء ـ الخميس ٢ـ٤ بعد الظهر.

الرجاء التواجد يوم ٢٥ أغسطس لتسجيل قيدك فى فصول الجامعة المختلفة.

الإقامة فى الأسبوع الأول مع أسرة رئيس القسم.

استضافة!!

وصلتنى البرقية المفاجئة، يوم ١٣ أغسطس، يعنى لم يكن لدى سوى عشرة أيام للإعداد للسفر، واتخاذ هذا القرار المصيرى.

أمريكا مرة واحدة!

أمريكا خبط لزق

الدراسة فى جامعة أمريكية منتهى أمل ومنية وغاية آلاف الطلبة والطالبات من أمثالى، لكن لم يخطر لى على بال أن المنحة ستكون دراسة وتدريس..لم يمر على الخاطر ولم يكن فى الحسبان أن أقوم بالتدريس للأمريكان.

ظلت هذه الفكرة المرعبة تطاردنى فى صحوى ومنامى.. لكن الشرط نور؛ هذه المنحة بالتحديد يقوم فيها الطالب فى قسم الدراسات العليا بالعمل كمعيد فى الجامعة مقابل التعليم المجانى، بالإضافة إلى

منحه مبلغــا رمزيــا محدودا لا يسد الـرمق ويكفى للحيــاة تحت حد الفقر.

تذكــرة سفر.. تأشيرة دخول.. دموع أمى الحارقــة، ودعوات أبى الصادقة، وروحى وارجعى بالسلامة.

وروحى ماترجعيش، قالتها جارتى الشــابة بثقة: هذه أمريكا على سن ورمح!

فى مطار القــاهرة واجهتنى أول عقبة على الطريق... الـوزن الزائد! وهذا يعتبر من الفولكلور الشعبى المصرى. ولو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا وأحمل «هاند باج» ثقيلة.

السلـوك السليم فى مثل هــذه الأحوال هــو الابتســام مع قليل من البؤس وكثير من التوسل.

ولم أتوسل. لكنى أبلغت الموظف المسئول فى عنجهيــة شديدة أننى فى طريقى لدراسة الدكتوراه فى الولايات المتحدة الأمريكية، خبط لزق! يعنى مســافــرة مع سبق الإصرار والترصــد لأتعلم وأعــود لخدمــة بلدى.. وطنى حبيبى، ويــاحبيبتى يامصر. وأنا محملــة بأثقال العلم؛ كتبى وزادى وكراكيبى فى بعثــة تعليمية ولست فى رحلة تـرفيهية أو بغرض تجارة الشنطة.

حملق الموظف المسئول وأنــا ألقى هذا الخطــاب الوطنى الجاد، ثم نظر لى نظرة الإنسان المتهور الذى يوقع يوميا على المئات من جوازات

السفر وهو مازال محلك سر، من مصر الجديدة لشبرا ياقلبى لا تحزن.. امتعض وتأفف قائلا:

ـ دكتوراه.. سكة اللى يروح مايرجعش، كلهم يسافرون للدراسة على حساب البلد، ويبلطون فى الخط هناك ولا يفكرون فى «الرجوع إلينا» ولا فى الشعارات الوطنية التى تتشدقين بها يا آنسة، ابقى ارجعى، بلدك محتاجة لك.. فوتى ومع ألف سلامة، انت وكتبك وكراكيبك!

فى الحقيقة.. الحقائب كانت خالية من الكتب، لكنها محشوة بالملابس والأحذية (لزوم الأناقة الجامعية عند الخواجات) بالإضافة إلى سجاجيد كرداسة و«جلاليب» وعلب مشغولة بالصدف وورق البردى، لزوم التواجد المصرى والهدايا..!

أى والله. فإنه من المعروف ومن المتداول أن الهدايا من موروث السفر المصرى عبر التاريخ. لمن ومن أجل من؟ لا أدرى ولا يهم. لأصحاب القسمة والنصيب، هدايا فى المطلق، هدايا من مستلزمات السفر وخلاص. والمثل الشعبى يقول: أنا غنية وأحب الهدية. إذن الرأسمالية تحب الهدية.. والهدية تكسب النفوس وتلين قلوب الناس والأساتذة.

لم اكن أتوقع او أتخيل أو أتصور علامات الاستفهام والدهشة على وجوه الأساتذة والزملاء حين قدمت هداياى المصرية.

كانت العيون تلمع بالاستفسار والتوجس: بمناسبة إيه؟ لم أفهم. كيف لا يقدرون أن القادم من السفر لابد أن يقدم هدايا..! كانت عبارات الدهشة تفوق كلمة شكر «ثانك يو» التى ينطقونها من طرف الأنف (وهذا هو تعريف كلمة أخنف على الطريقة الأمريكية) وتحولت الهدية إلى قضية محرجة للغاية.

لم تكن مسألة الدراسة والتدريس هى فقط التى تؤرقنى وتنغص على رحلتى. كان موضوع استضافة رئيس القسم الأمريكى لى فى منزله مسألة غريبة ومريبة ومبهمة.

أولا: رئيس القسم عندنا فى مصر مازال يبحث عن شقة، ثم ما شأنه باستضافة الطلبة؟!. عندنا إذا ألقى رئيس القسم تحية الصباح «تبقى» فتحت لنا طاقة القدر. وإذا تذكر اسم طالب فإما أن يكون هذا الطالب عبقرى زمانه، أو واسطته سيادة الدكتور العميد، أو ابن دكتور زميل (سيصبح معيدا فى يوم من الأيام طبعا).

لماذا يقوم رئيس القسم باستضافتى؟ بنت مين فى مصر.. وبما أنه رئيس قسم لابد أن أكون فى عمر أولاده.. يعنى لابد أن يكون متزوجا. مصيبة لو كان من مدرسة العقاد ويحب عيشة العزوبية. «إن شاء الله يطلع متزوج بالثلاثة». فى هذه الحال يمكن عنده أولاد.. فى سنى.. مصيبة.. كيف اقيم مع شباب أغراب فى بيت واحد. لا.. لابد أن نضع النقاط فوق الحروف. أنا بنت شرقية محافظة جدا جدا حتى لو ذهبت

إلى القطب الشمالى.

قمت بإعداد خطبة عصماء عن عظمة الشرق المحافظ وتفسخ المجتمع الغربى المهترىء للسيد رئيس القسم، الذى لا أدرى ما الذى حشره فى الموضوع بالضبط. هل يتقاضى مرتبه عن التدريس وتربية جيل صاعد وإدارة شئون القسم، أم عن رعاية اليتامى المساكين والوافدين؟.

طبعا.. «ماأنا طالبة وافدة».

الطلبة الوافدون عندنا فى الجامعات المصرية من قبائل الفولانى واليوروبا النيجيرية أو من سيريلانكا وباكستان وماليزيا والكونغو. نحن ـ الطلبة المصريين ـ نعتبرهم قادمين من دول فقيرة متخلفة إلى هوليوود الشرق «القاهرة الساحرة».

شعرت بالذنب، فأنا اليوم طالبة وافدة. ترى هل سأتلقى نفس المعاملة ونظرات التعالى والفوقية من الطلبة الأمريكان بصفتى قادمة من دولة نامية (أيوه.. نامية. فالدول إما نامية تنمو أو متقدمة تقدمت)؟ أما لقب الدول المتخلفة فمرفوض مرفوض فى قاموسى الثورى. وضربة فى قلب من يقول «متخلفة» حتى لو كان رئيس القسم. كنت مدججة ببعض العدوانية وقليل من عدم الثقة والتشكك وكثير من علامات الاستفهام والخوف من المجهول... ورئيس القسم.!

وصلت مطار مدينة لويفيل بولاية كنتاكى (مسقط رأس دجاج كنتاكى الشهير). لم أكن أعرف عن هذه الولاية سوى علاقتها الوثيقة بالدجاج المقلى.

وجدت فى استقبالى السيد الدكتور رئيس القسم.. مرة واحدة.. خبط لزق!.

لم أصدق عينى للوهلة الأولى، السيد رئيس القسم شخصيا والسيدة قرينته وكريمه وكريمتيه (المدام والعيال والأستاذ جاءوا جميعا لاستقبالى) «بالشورت» والحذاء الكوتشى. صحيح الدنيا صيف ودرجة الحرارة نار، لكن بالشورت! ياأساتذة. قلت: ديمقراطية وحرية ويمكن «سلو بلدهم» البساطة البساطة. وجدت أن الأمور استجد فيها أمور. لم يكن الدكتور والأسرة فقط، بل وهيئة التدريس بأكملها. انتفخت أوداجى... مصر أم الدنيا برضه.

تذكرت فاتن حمامة وماجدة وسعاد حسنى وتراثى السينمائى النسائى، ورنت فى راسى أصواتهن فى اللهجة الفلاحى: هو ده البندر... أنت فين ياأمه، تعالى شوفى بنتك.

وما بين طرفة عين وانتباهتها يبدل الله من حال إلى حال. السيد رئيس القسم والهيئة جاءوا لاستقبال وفود الوافدين للجامعة. العبدة لله من مصر وناس قادمة من بورتريكو وكوستاريكا والمكسيك والهند وباكستان وسيريلانكا وقبائل الفولانى.. إلخ إلخ.. كلهم

أجل المرحومة البعثة.. ويتحدث من منطلق أن البطاقة الخضراء حولت عيونه السوداء إلى خضراء وجعلت شعره الأجعد سلاسل من ذهب.

على كل الأحوال أبواب الجنة موصدة أمامى، لأنى لست لاجئة سياسية والحمد لله، كما أننى بنت شرقية محافظة لن أتزوج أمريكيا ومقطوعة من شجرة فى أمريكا. تذكرت كلمات موظف الجمارك بمطار القاهرة وسكة اللى يروح مايرجعش حين سمعت همهمات وهمسات زملائى الوافدين بنوايا خبيثة فحواها، من ذا الذى يريد العودة للدول المتخلفة (قطع لسانهم).

اكتشفت فيما بعد ....

إذن.. موضوع استضافة رئيس القسم لسيادتى كان مجرد صدفة خير من ألف ميعاد وليس لأن هناك وجه شبه بينى وبين نفرتيتى أو حفيدة الملك خوفو.

الدكتورة حرم.. الدكتور !

وقفت الدكتورة حرم الدكتور رئيس القسم وهى ترتدى الشورت فى مطبخ المنزل الريفى الجميل تعد العشاء على الطريقة الأمريكية. لويفيل.. مدينة ريفية جميلة وهادئة ومملة فى الغرب الأوسط. بلاد الفلاحين. ومنزل الدكتور جميل وواسع وهم لا يطلقون عليه كلمة فيللا ولا قصر. البيت هو بيت السكن والسكينة والأمان والاطمئنان والانتماء والأسرة. البيت هو أهم شىء فى حياة الأمريكان. وللبيت حديقة غناء وأشجار وارفة وحمام سباحة. تحسرت على رئيسى الذى مازال يبحث عن شقة فى القاهرة. وتصورت أن مهنة التدريس الجامعى تؤدى إلى هذا الثراء الفاحش. وإلا من أين لك هذا يارئيس القسم، هذا المنزل الوجيه وهذه السيارات الفارهة، ربما يعطى كثيرا من الدروس الخصوصية (لكن هذا قسم دراما وليس كلية الطب).

فى اليوم التـالى، شاركـت فى طلاء حجـرة المائدة باللـون البرتقالى وتركيب ورق الحائط فى حجـرة الأولاد. قام الـدكتور فى عطلـة نهاية الأسبوع بعمل السباك والنجار والنقاش وأن كل شىء فى البيت صنـع محليا، أى بيده لا بيد العمال والمقاولين، يعنى لا غنى ولا يحزنون.

كل مـا فى الموضوع أنه اشـترى البيـت بالتقسيط على ثـلاثين سنة مثله مثل معظم الطبقـة المتوسطة من الشعب الأمـريكى. والسيارات بالتقسيط، وخد عندك يمكن أن تشـترى أى شـىء فى الدنيا بالتقسيط على دفعات والـوظيفة هى وثيقـة التامين. الاقتصاد الأمـريكى الحر قائم على الحركة الدائبة لبيع المسـاكن وصناعة السيارات. والناس فى حركة بيع وشراء وانتقـال لا يكلوا ولا يملوا.. مخلوقـات استهلاكية. الأمـريكى يبـدأ حيـاتـه فى بيت صغير يكبر مع نمـو دخلـه وأسرتـه وارتقائه لسلم النجاح العملى والاجتماعى. مـن منزل إلى منزل، ومن ولاية إلى ولايـة سعيا وراء الأفضل. ومن ثـم أعطى ذلك دفعة قـوية جلة الاقتصاد التى يحركها وقود الاستهلاك اللانهائى.

وهذا لا يعنى أنـه لا توجد بطـالة، بالعكس، لأن مجتمع المنـافسة يولد حتمية قاعدة البقاء للأفضـل، وهذا هو المحور الذى يرتكز عليه الفكر الرأسمالى.

كانت هـذه نبذة تعليميـة من الدكتـور رئيس القسم لأنى لم أفـهم نظريـة الاستلام فورى والـدفع بالتقسيط (حتى لو كـان ٣٠ سنة)

يعنى الثراء نسبى والفقر نسبى، والسلف فى أمـريكا ليس تلفا والرد خسارة بل بفوائد وكما يقـول التعبير الأمريكى Foir enough أو منتهى العدالة، أو حتى نراعى الدقة هذه عدالة بدرجة كافية.

فكرة العدالة الغربية نسبيـة، بدرجة كافية أو كبيرة أو ممتازة بما يوازى قيمـة الفعل. وهذه عقليـة برجماتيـة عملية، على عكس فكـرنا الشرقى الـذى أعطى العدل مفـاهيم فلسفية وأبعـاداً عاطفيـة. فكيف يكون العـدل بدرجة؟ العدل عـدل ولا يمكن أن يصبح نصف عدل أو ربع عدل!

انبرت الدكتورة« آن» للدفاع عن وجهة نظرى الشرقية فى استحالة تجزئة العدالـة، فهى ترى أنـه ليس من العدالـة أن نذبح الحيـوانات لنأكل لحمها..!

انـدهشت وقلت لها إن الحيـوانات لم تكن هـى المقصودة بفكـرة العدالة، لأننا شعب يقيس المكانة الاجتماعية للشـخص بمقدار ما يأكل من لحم! وأن اللحم عندنا قيمة ومركز.

اكتشفت فيما بعد ....

أن الدكتورة مخلوق ضد اللحم! الدكتـورة بيئوية، من أشد الدعاة وحماة البيئة. والدكتورة نباتيـة تأكل الخضروات وترعى النباتات فى الظل وفى عز الشمس، وتعتبر أكل اللحـوم همجية ووحشيـة. وقلبها يأكلهـا على شعـور البقـرة لحظـة ذبحهـا (وتيجى لها كـوابيس).

بالـدببة والبـوم وكلاب البحـر وتغمض عينيها عن مـلايين الأطفال والفقر المدقع والجهل الشديد. والمسائل نسبية.

الدكتـورة حاميـة حمى المملكة الحيـوانية تنفق على طعـام القطط والكـلاب والفئران (نعم.. الفئـران المستأنسة لتسليـة الأولاد) تنفق مبالـغ شـهريـة باهظة. وهى ليست وحدهـا، فـالبيئيون كثير وشركات الإعلانـات التليفزيونية تعمل كـالمنشار طالع إعلانـات طعام القطط، نـازل إعلانـات طعام كـلاب. إعـلانات يسيل لها لعـاب البنى آدمين، معلبات كبد الدجاج المهروس والاستـاكوزا المفرومة بالجمبرى، وأنا قادمة من بلاد عاشت الحلم الاشتراكى حتى النخاع!

ومازلت أذكـر فى طفولتى الشبشب «الـزنوبـة» وعلبة الأنـاناس والبنطلون الهيـلانكا والنظارة البرســول كانت منتهى المراد وتتطلب رحلة إلى غزة. وحتى حين حدث وفتحت مـن أوسع الأبواب بسياسة الانفتاح، كنا نعتبر أن توافر المياه الغازية رفاهية عجيبة.

قلت للـدكتورة البيئـوية أننى شرقيــة لا أستطيع استيعاب فكـرة طعام القطط والكلاب المعلب والمغلف تغليفا فاخرا. بقايا الطعام فى أى بيت شرقى من نصيب صـــاحب النصيب، وفضــلات الفضــلات من نصيب القطط والكلاب. لم أكن أدرك أن سعـادة القطة وسيادة الكلب تقام لهما أعياد ميلاد وتقدم لهم هـدايا فى رأس السنة والكريسماس من عظم بـلاستيك وجاكيتـات صـوف اسكتلنـدى وعلب شيكولاتـه محشوة «زّفر»!

الثقيلة.. على الطريقة المكسيكية!

وهذه هى...

الصدمة الحضارية Cultural shock

والصدمة الحضارية تعبير أمريكى يطلقونه على أمثالى من الوافدين، من الشعوب التى عرفت الصدمة السياسية، الصدمة النفسية، الصدمة الاقتصادية، الصدمة الإرهابية، الصدمة الدكتاتورية وأضعف الإيمان الصدمة العاطفية.

لكن الصدمة الحضارية هى الصدمة الأمريكية... حقا

والصدمة الأمريكية تصيب الوافدين من بلاد تركب الأفيال أو الجمال أو الأتوبيسات المزدحمة، وهى تبدأ من إعلانات «فواجرا» القطط و«كافيار» الكلاب إلى تكنولوجيا الحياة اليومية، حيث تصرف الشيك من البنك وأنت جالس فى السيارة، وتتصل برقم تليفونى

ويبـدو أن البـائعـة الـذوق لم تفهم شيئـا، إلا أنها مضت فى أدب
تقـول: لست فى حـاجـة إلى استعجـال ولا وزيـر ولا غفير ولا ء
تليفونـات، خلال ساعتين وخمس وعشرين دقيقـة سيعمل تليف
كل مـا عليك، هـو وضع السلك فى «الفيشـــة» الخاصة بـالتليفـو
منزلك. التوصيلة موجودة فى أى مبنى والخطوط متوفرة.

ــ والإمضـاء والتوقيع، وتـأشيرة السيد وكيل الـوزارة ومـ
الوزير.. أما الجماعة الأمريكان دول.. كيف يتجرأون على تركيب
دون التأشيرة؟!..

المهم أصبح عندى الآن.. تليفون.

حار محطر صيفاً.. زمهرير مريشتاءً!

فى السوبر ماركت وهو حقا «سوبر» يمتد على مساحة عدة فدادين، دهاليز طويلة يمكن أن تمر بينها سيارة ميكروباس بالزبائن. الرفوف مزدحمة بألف صنف وصنف، مائة صنف شاى وخمسمائة صنف قهوة وسبعمائة صنف عصير.

دفعت بالترولل الصغير أمامى لشراء خزين البيت (أقصد الاستوديو) خل وزيت وسمن وسكر وأرز وعدس وشاى وفاكهة وخضروات وعلب محفوظة، حتى تحول الترولل إلى هرم صغير من المشتريات.

الطابور طويل والناس كلها تدفع بالشيك أو بطاقة الائتمان أو مايطلقون عليها «فلوس البلاستيك» إلا محسوبتكم، دفعت نقدى، حذرتنى جارتى فى الطابور سيدة عجوز، همست لى قائلة: لا تحملى

دولارات معك، إنك صيد ثمين للبلطجية والحرامية. احتفظى دائما بعشرة دولار فقط حتى إذا وقعت تحت تهديد مطواة أو مسدس لا يصاب السارق بالاستفزاز، إذا ما وجد أنك خالية الوفاض من النقد.

تهديد! مطواة!

سألتنى عاملة السوبر ماركت التى وضعت مشترياتى فى أكياس ورقية ضخمة بحرص شديد: هل تريدين المساعدة أو أن يصاحبك أحد للسيارة؟

سيارة!

سيارة من؟ شعرت بالخجل وقفت أضرب أخماسا فى أسداس. وقعت فى حيص بيص. والأكياس الضخمة المحملة بالأثقال الحديدية الوزن مرصوصة على الرصيف أمامى.

لا يوجد تاكسى، فالتاكسى فى هذه الأراضى الشاسعة يجب استدعاؤه بالتليفون ويكلف شىء وشويات دولارات.. وأنا وافدة مغتربة جئت لا أعلم من أى شارع لكنى أتيت، ولقد أبصرت أمامى سوبر ماركت فدخلت.

لا يوجد فراش ولا ساعى ولا سايس ولا الواد بلية يأخذ ربع دولار ويحمل عنى تلك الأحمال والأثقال. وتذكرت محاضرة السيد رئيس القسم بالاعتماد على الذات.. هذه أمريكا ياويكا، قلت لنفسى: هلب يور سلف واتكلى على اللى خلقك يابنت.. احملى الأكياس.

لكن محسوبتكم مخلوق ضعيف ذات إمكانيات جسمانية محدودة وعدد ذراعين فقط لا غير، أمام عشرة أكياس منتفخة مثل الدببة القطبية حبايب الدكتورة آن.

ومشوار الألف ميل يبدأ بخطوة.

وهذا هو مشوار الألف ميل الذى لن أنساه ما حييت. كنت أقوم بحمل كيسين عشر خطوات، أضعهما على الرصيف وأهرول عائدة أحمل كيسين آخرين وأضعهما إلى جانب جيرانهما، وهكذا أربع ساعات مرت كأنها أربعمائة سنة وأنا أركض لاهثة بين الأكياس والعرق يتصبب منى، والسيارات المارة تهدىء من سرعتها للفرجة على هذا المشهد العجيب الفريد. فتاة وحيدة مجنونة تعدو عشرة أمتار بين هذه المصائب السوبر ماركتية، وقد انهمكت فى سباق محموم مع قوى خفية. والذى زاد وغطى حتى تكتمل المغامرة التراجيدية، أن السماء رعدت وزمجرت وانشقت عن ثعابين كهربائية مرعبة.. هذا هو البرق بعينه.. شخصيا أتعرف عليه عن كثب.. برق ورعد وأمطار غزيرة، صرت أسبح فى ماء بالسكر والأرز باللبن، أسنانى تصطك وركبى ترتعد حتى وصلت إلى الاستوديو المنشود وقد أصبحت ذراعاى فى لون الباذنجان الرومى زرقاء رمادية، وأصابعى فى حجم محشى الكرنب المجمد. توقفت الدماء عن السريان فى عروقى واستلقيت على الأرض (لأن السرير فى الدولاب والأمر يستلزم طاقة

جسمانية ومجهودا عضليا لإخراجه) ومن حولى الأكياس المبللة تحدق فى كساحرات ماكبث، تكاد تهمس: احترس.. احترس..

أنا لم أفكر لحظة فى عواقب رحلة التسوق الممتعة، لم يخطر على بالى أنى لا أملك سيارة، وليس لدى جيش الخدم العرمرم المجانى المنطلق يركض فى شوارع القاهرة تحت الأمر والطلب مقابل شىء نسخر منه، وننتقده، ونتبرأ منه، ونحتقره، وندعى أننا توارثناه عن المستعمر التركى، شىء اسمه البقشيش، لم أكن أدرك أن النخوة والشهامة ومساعدة الناس لبعضهم البعض مسألة تتطلب تفكيرا وقرارات من الأمم المتحدة، لأن الناس تخشى بعضها البعض، ولو تهور مخلوق لمساعدة ضحية حادث سيارة مفروم تحت العجل، يضعونه فى السجن وربما يطالبه المجنى عليه الضحية بتعويض لأنه كسر له ضلعا وهو ينقذ حياته!

لم أدرك أن سلوكيات وقوانين الشراء الأمريكى والتسوق على الطريقة السوبر ماركتية يختلف اختلافا جذريا عن التسوق فى الشارع المصرى. كما أننى لم أكن أتوقع مفاجاة الطقس الكنتاكاوى السخيف، وأنه ليس حار جاف صيفا ، معتدل ممطر شتاء.. بل حار ممطر صيفا برد زمهرير وثلج مرير .. شتاء»

لم افكر لحظة أننى حين أصرف ما فى الجيب لن يأتى الدولار من الغيب.

وكان أول درس من دروس الصدمة الحضارية.

كل شيء متوفر نعم.. لكن عرفت شراء موزة واحدة وأن برتقالة واحدة تكفى وأن اللحم يباع بالشريحة والجرام وليس بالكيلو وحتى أسلك سبيل التوفير بدون تأنيب ضمير اتصلت بالدكتورة حرم السيد رئيس القسم وأخبرتها أننى معجبة بجمعية أعداء اللحم على سبيل مناصرتها فى قضيتها المصيرية الا وهى الرفق بالحيوان.

لم تدرك الدكتورة أننى أخفى دوافعى الحقيقية مثل شح الميزانية وادعيت أننى فكرت فى معاناة البقر ودموع الخروف، ثم أننى أقنعت نفسى أن لحمة عم أنور الجزار طعمها عسل وسكر مقارنة بلحم الأمريكان التى يشبه طعمها طعم صناديق كرتون الأحذية أو صابون الجمعية.

لكنى كنت أعشق ساندوتشات ماكدونالد الهامبورجر ، هذا بالإضافة إلى إنها رخيصة وفى متناول اليد. سألت الدكتورة فى خبث: المقاطعة اللحمية لاتنطبق على مقاطعة الهامبورجر.. بيقولوا معمول من فول الصويا؟ وأنا بنت حضارة الفول.

والتقيت بها!

تعرفت على قطعة «الاستيك»، أو قطعة اللحم الهرقلية، والاستيك الأمريكى ليس له مثيل. قطعة لحم عملاقة، والقطعية سواء كانت مشفية أو بالعظم تتنوع أشكالها وأسماؤها، لكنها فى كل الأحوال أكبر

من الطبق، تمتد أطرافها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا.

الأمريكيون هم الذين اخترعوا الحجم الكبير «السوبر» فى كل شىء. وهم يبدأون من قاع السلم بالحجم الصغير الذى لايملأ العين ولايسد الرمق، وهناك الحجم المتوسط، «النص نص» عندنا. أما بشأن القياس الكبير، فالكبر درجات. كبير، كبير قليلا، كبير زيادة، كبير جدا جدا جدا وهذا هو الإكسترا، حتى الإكسترا فيه واحد واثنين وثلاثة وهناك السوبر.

فإذا سألت أمريكيا كيف حالك اليوم ويكون حاله تمام التمام؟.

يرد قائلا: أشعر كأننى مليون دولار.

ونظرية السوبر أو مافوق العادى يطبقها الأمريكيون فى حياتهم اليومية على جميع المستويات بدءا من حجم قطعة اللحم، أو الساندوتش الخمس طبقات إلى السيارة.

والسيارة الأمريكية فارهة بالضرورة، وهم الذين اخترعوا الكاديلاك والليموزين والسيارة ثمانية أبواب.

وفكرة الرفاهية الأمريكية سوبر مطاطة، مرتبطة ارتباطا وثيقا بفكرة الحجم الكبير والاتساع والامتداد والرحابة، وهو سلوك حياتى ومعادل موضوعى لامتداد الخريطة الجغرافية للقارة الأمريكية ــ الأمريكيون هربوا من ضيق أوروبا إلى الأراضى الأمريكية الشاسعة واخترعوا شعار Think big فى المشروعات

والشركات والعلاقات العاطفيــة ومعناها إذا فعلت شيئا فليكن كبيرا. (فى حضارتنا اخترنا أن نقول إن عشقت اعشق قمر وإن سرقت أسرق جمل). وعلماء الاقتصاد يستعلمون stale of Economy ومعناه أن التــوسـع فى الإنتــاج والطلب والسوق يسمح بــالــربح بينما ضيق السوق وصغــره يؤدى إلى انهيــار المشروعات. وعنــدهم مثل شعبى يقول «إذا أطعمت فول سودانى تحصل على قرود!»

دعــانى أستاذ مــادة الدرامــا الشكسبيرية المعقــد على العشاء هــو والمدام. والحقيقة صحتهم كويســة، هو طول وعرض بــاب «سوبر» والمدام فى حجم أريكة إكسـترا لوكس.

كانت الدعوة فى مطعم متخصص فى أنواع الاستيك الهرقلى.

أدركت أن الدكتورة حرم رئيس القسم النباتية خدعتنى . أعطتنى فكرة زائفة عن المواطن الأمريكى.

الموضــوع ومافيــه أن الدكتــورة تنتمى إلى فئة البيئيين النبــاتيين الخضر.

وهـم عادة من المثقفين الكحيانين أصحــاب الشعارات لأنهم ليسوا من أصحاب الأرصدة الضخمة والحسابات البنكية الفلكية. الإنسانية «تنقح» عليهم بصفة دائمة ويخترعــون دوافع المثالية لكل شىء حتى أكل اللحمة.

والمثقف الأمريكى يتصــور أنه يستطيع قيادة الحيــاة وأنه رئيس

مجلس إدارة الإنسانية. يقوم بتـوظيف الأخلاق وفلسفة الأمور لأن الطاقـات الإيجابية الكـامنة فى النفس الإنسانيـة منطلقة بـدون قيود الأعراف والتقاليد العتيقة، متحررة من أسر الماضى العريق، لأن ليس لهم ماض ولا تاريخ. والمثقفون الأمريكيون أعداء التدخين وأكل اللحم والتليفزيـون والثروة مثل الـدكتورة البيئـوية متـوسطة الحال التى عنـــدهـا بيت وبـــدلا من السيـــارة اثنتين وحمام سبـاحـــة وتلعن البرجوازية.

واكتشفت فيما بعد..

أن المواطن الأمـريكى يعشق اللحـم ويمـوت فى دبـاديب الاستيك وساندوتش الهامبورجر والهوت دوج (الكلاب السـاخنة ـ أو السـجق أمـا لماذا أطلقـوا عليهـا هـذا الاسم العجيـب.. اسألـوهم). والمواطن الأمريكى يعيش على طعـام «الجنك». هكذا يسمـونه وتـرجمة الكلمة «الخردة». أى أنهم يدركون أن هذا الطعام غير صـحى وخردة ومزيف مضاف إليه مكسبات اللون والطعم والرائحة إلا أنهم يعشقونه.

طبعا لم أطلع الدكتورة البيئوية على علاقاتى الجديدة الوطيدة مع الاستيك الأمريكى والتى انتهت بكـارثة ومقاطعة من الـدرجة الأولى فحين وجه لى أستاذ الدراما وزوجته الدعوة على العشاء ثم الذهاب إلى السينما «وهذه هى الفسحـــة التقليديـة للناس العـادية» قلت لنفسـى: ياللكـرم.. وكيف لى بالانتقال وأنـا لاعندى مركبة فى البلـد ولا عندى

زورق؟! قلت : فرصة ذهبية أن يصحبنى الأستاذ والمدام فى سيارتهما الفارهة. قبلت الدعوة وأكلنا الاستيك العظيم وجاء وقت الحساب فإذا بالأستاذ المحترم والمدام يتشاوران فى الفاتورة ثم أخرج كل منهما بعض الدولارات من جيبه والتفتت لى المدام قائلة : «مطلوب منك خمسة وثلاثين دولار وسبعة سنتات فقط لاغير هذا نصيبك».. يعنى الدعوة تعنى الصحبة فقط أما المصاريف فكل إنسان مسئول عن نفسه.

على باب السينما فهمت «الفولة» الأمريكية فى الدعوات الخارجية وقمت بدفع ثمن تذكرتى على الفور.

عزومة الويك اند.. قضت على آخر مليم.. «عفوا».. سنت فى جيبى وكان علىّ أن أتقشف وأشد الحزام حتى آخر الشهر وما أكلته من استيك طلع علىّ بطاطس بطاطس.

لم أستطع حتى شراء الطعام الخردة ولا أكل المهملات.

أستاذ النقد المسرحى يؤمن بأهمية العلاقة الإنسانية بين الطالب والأستاذ وقبل بداية العام الدراسى تلقيت مكالمة تليفونية من «ستيف»..

ـ ألو أنا ستيف.

ـ أنا لا أعرف أحدا بهذا الاسم.. النمرة غلط.

ـ أنا ستيف أستاذ مادة النقد المسرحى.

ـ لا يا أخويا.. أستاذ مادة النقد اسمه «دكتور ستيفن شولتز»

ـ أنا ستيفن شولتز والجميع هنا ينادونني بـ«ستيف».

اكتشفت من مجرى الحديث أنه سعادة الأستاذ. لملمت أطراف الجلابية ووقفت أمسك بالسماعة بأدب شديد وتهذيب مريب وقلت له:

ـ «يابروفيسور شولتز....» ولم أكد أكمل العبارة فقد انتابت الرجل حالة هستيرية من الضحك وقال لى: «بروفيسور.. لم يطلق علىّ أحد هذا اللقب من قبل» أرجوك أنا اسمى «ستيف».. اسمك مقيد عندى فى الدراسات العليا وقد اتصلت لأنصحك بقراءة هذه الكتب وأعطانى قائمة طويلة عريضة للإطلاع عليها بمثابة قرارات تمهيدية تحضيرية قبل بداية العام الدراسى.

أولا : الأستاذ الدكتور البروفيسور اتصل بى شخصيا.

ثانيا : اهتم بإعداد الطالب قبل بدء الدراسة للمادة

ثالثا : ستيف وبرت وبيت وليز هم هيئة التدريس ويستخدم الطلبة أسماء الدلع والتدليل فى التعامل معهم، لا أحد يقول يادكتور ولا يابروفيسور ولا حتى يامستر، ربما كان هذا لأنهم أبناء قسم الدراما .. فنانين ومثقفين بقى.

وعلى الرغم من ذلك فإن الطبيب المعروف يطلق عليه لقب مستر حيث أن كلمة دكتور تطلق على الطبيب المبتدىء.

هذا الأستــاذ المتواضع المهتــم بشئون الطــالب الثقافيــة والعلمية والنفسيــة قبل وأثناء وبعــد الدراســة تم تحويله للتحقيق والشئــون القانونية فى الجامعة لأن إحدى الطــالبات اعتبرت أنه سخر من بحثها فقدمت شكوى بأنه اعتدى على مشاعــرها وهزأ منها بين الطلبة وهذا يعتبر بلغة القانون الأمريكى «أذى نفسى» قد يكون له عواقب وخيمة على مستقبلها وثقتهــا بنفسها وقــد وقّع طلبة القسم مــع سوزى على الشكــوى بالإجماع. وقفت أخطب فيهم وقلت لها اعقلى يــاسوزى يــا أختى انتوا عــرفتوا الأستاذ فين؟ أذى نفســى ياعين أمك الزرقــاء. أنا قادمة من بلاد تؤمن بأنــه «كاد المعلم أن يكون رسولا» وفى أول يوم من أيام المدرسة تعلمنا القيام «وقم للمعلم وفه التبجيلا». نحن نخاف من ظل وخيــال الأستاذ فبيــده مفــاتيح النجاح والــرسوب وأبــواب المستقبل، عشت وشفت الطالب يحول الأستاذ للتحقيق.

قال أذى نفسى قال.

اعتبرونى شرقية رجعية متخلفة غير ديمقراطية.

نعم الطالب يتحكم فى الأستاذ لأن الطالب يدفع مصاريف فلكية فى الدراسة الجامعيــة والأستاذ الذى لايحظى بإقبال الطلبــة على مادته أستاذ فاشل مهدد بالفصل، والطــالب يدرس بفلوسه ومن ثم ينتظر خدمة تعليمية حقيقية ممتازة وليس مجرد شهادة والسلام.

واكتشفت فيما بعد ....

أنه ممنوع منعا بــاتا على الأستاذ إقامة علاقــة عاطفية مع طالب..

يعنى لايمكن أن يتقـــدم أستــاذ لخطبــة طــالبـــة عنــده فى القســم أو يتزوجها. وإذا كــان ولابد والحب مقطع بعضـه، إما أن تنتقـل الطالبة إلى قسم آخر أو أن يستقيل الأستــاذ. لأن مثل هذه العلاقــات تشوبها المصلحة الشخصيــة والمحابــاة. أما إذا كــان الأستاذ مستهترا وأقــام علاقــة غرامية مع طــالبة فيتم فصلــه فى التو واللحظة لأن هــذا ضد أخلاقيات المهنة. تعجبت فهذه القضية لاتشغل بالنا فى مصر والحكاية سداح مداح ويــاما أساتذة تــزوجوا طالبات وعينــوا الأولاد والبنات معيديــن ومعيدات، ولم يفتح أحــد ملف القرابــة الشخصية.. ويــاما أساتذة استخدموا الجاذبية الأستــاذية الشرقية ولم يتزوجوا. وخلّوا الطابق مستور.

وستيف شخصية غريبة، مثقف درجة أولى وهذا يعنى بالضرورة أنه من جبهة الــرفض وهو يقاطع التليفزيون مقــاطعة سوداء ويعتبر أن مشاهدة الشـاشة الصغيرة تــؤدى إلى السلبية والاستسلام وعدم الإقدام على الفعل والشعور بالإنجــاز الزائف كما أنها تؤدى إلى الهبل المخلوط بالعبط، ستيف يعتقــد أن التليفزيون يولد فى المشـــاهد عادات متخلفة ويقوم بتفريغ طاقاته الإنسانية. ويقول ستيف: أنا أرفض أن أمتلك تليفــزيونــا لأنى أرفض أن أكون مجرد متلقى لثقــافة منــاديل الورق كما كان يطلق عليها مثل مسلسلات دالاس ونوتس لاندج التى يعتبرهــا مثل مناديل الــورق تشاهــد الحلقة ثم تلقى بها فى صنــدوق

قمامة الفن الزائف.

وكما أخفيت عن الدكتورة البيئوية عشقى للحوم أخفيت عن أستاذى حقيقة أننى مدمنة لهذه المسلسلات المضللة التى لاتعكس الصورة الحقيقية للحياة الأمريكية، وتعتبر من الفضائح الثقافية مشاهدة مسلسلات«أوبرا الصابون» التى تذاع لربات البيوت الغارقات فى بحر الملل ومن ثم تعرض أكبر نسبة من إعلانات الصابون فى فترة إذاعة المسلسل. ومن ثم فعليك أن تأخذ حذرك فى أى حوار ثقافى لأن مدعى الثقافة والأناقة الفكرية يختبرونك فإذا ثبت لديهم أنك تشاهد المسلسل من قريب أو من بعيد فهذا يعنى أنك منحدر فكريا ومتواضع ثقافيا وعقلك مغسول بالصابون.

أنكرت نكرانا شديدا أى علاقة مع التليفزيون أو مسلسلاته وباءت محاولاتى بالفشل فى إقناع ستيف بمشاهدة نشرة الأخبار التى تعتبر استعراض منوعات قائما بذاته، كان رده لى: الثقافة التليفزيونية ثقافة سلبية لأنها لاتحثك على التفكير أو المشاركة.

أما القراءة فثقافة إيجابية ومتعة تحث القارىء على إعمال الخيال والمشاركة الفعالة، وفن السينما يشاهد فى دار السينما وكذلك المسرح حيث يصبح المشاهد مشاركا إيجابيا بإضفائه مفهومه وتفسيره الخاص والذاتى على النص المعروض أمامه والذى ينبض بالحياة على خشبة المسرح.

عيد ميلاد كلبة الجيران!

جلست أمام الآلة الكاتبة أحملق فى الحروف المجرمة التى استعصت على أصابعى، وأدندن: أراك عصىّ الدق شيمتك العند. لعنت مخترع الآلة الكاتبة والكمبيوتر وسنينهم. ماله القلم الجميل الرشيق.

أكتب ثم أشطب وأشطب ثم أكتب على أقل من مهلى. أتحكم فى الحرف وفى الكلمة وأغازل السطور وأنتقم من الأوراق ثم أكتب وأشطب.

الكارثة التى واجهتنى هى أن تقديم أى بحث جامعى بخط اليد مسألة مرفوضة ومفروغ منها. والكتابة الخطية شىء يثير الضحك والسخرية والعجب. الكتابة الخطية أصبحت حجرية الطراز يستخدمها أمثالى ممن يركبون الجمال والأفيال. وامصيبتاه.. الناس

خيبتها السبت والأحد وأنا خيبتى مش على حد. حتى الآلة الكاتبة وهى أضعف الإيمان لم أقدر عليها بل كان المطلوب أن أقدم الأبحاث مكتوبة على مقصوف الرقبة الكمبيوتر وأنا ارتعد وأرتعش من التعامل مع الأجهزة التكنولوجية شأنى شأن المواطن الشرقى الأصيل.

أمسكت بالبحث بيدى وقلت لنفسى : البحث وراءكم والآلة الكاتبة أمامكم أين المفر؟!.

استغرقت كتابة البحث والبحث عن كل حرف نصف ساعة ولما مضت عشر ساعات وأنا لم أنجز سوى نصف صفحة، وانقطم أصبعى من الدق على الآلة الكاتبة وكان من المستحيل أن أستخدم أصابعى العشرة فى وقت واحد اتخذت قرارا مصيريا شرقيا مائة بالمائة. فنحن الذين ابتدعنا الاتكالية وهذه فوائد العادات السلبية رب ضارة نافعة، فكرت ودبرت وسألت: ترى من يمكن أن أتكل عليه؟. اتصلت بصديقتى فيكى وعرضت عليها بلغة الأمريكيين عرضا لاتستطيع أن ترفضه وقلت لها: يافيكى ياحبيبتى أنا بنت حضارة اتكل على الله واتكلى علىّ وخريجة مدرسة الاتكالية. عرضت عليها استئجارها «كتيبة خاصة» تكتبين لى الأبحاث على الآلة الكاتبة مقابل مرتب محترم «يقتطع من أكل العيش والهامبورجر ويعيدنى إلى عالم البطاطس». نعم البطاطس أرحم علىّ من الآلة الكاتبة.. وهين قرشك...

جاءت فيكى فى اليوم التالى وانكفت على الآلة الكاتبة، إن هذه وظيفة محترمة فى بلدنا، وهى تشرح لى أنها لاتفهم هذا المنطق المعكوس.

لماذا لايكتب الناس مباشرة دون وسيط؟

فيكى فتاة طويلة حمراء الشعر رائعة الجمال عيبها أنفها المعقوف.

تدرس فى الصباح وتعمل جرسونة فى المساء، كانت شكواها الدائمة أن أنفها معقوف بنسبة ٣ ملليمتر وهذه الإنحناءة إلى أسفل تعطى الانطباع بالسقوط وبأن شخصيتها ضعيفة مستسلمة.. ماعلينا..

اكتشفت أن فيكى وساندى ونانسى يعملن جميعا جرسونات لأن هذه هى الوظيفة المثالية لكسب المال الحلال دون قهر الضرائب الأمريكية المفترسة وكان شعارهن «بالبقشيش نعيش».

إذن هذه الجامعة عدمانة كحيانة.. طلبة فقراء تطحنهم الدراسة النهارية والخدمة المسائية والحياة كفاح. الغريب أن الجرسونات الفاتنات يعملن بجد ومثابرة من أجل توفير مصاريف الجامعة وتكاليف طعام مين؟!

طعام الكلاب!!.

الواحدة من هؤلاء لاتكاد تجد قوت يومها ومع ذلك تربى كلبا وتطعمه كبد الدجاج الفاخرة المحفوظة. ولما كانت مشكلة فيكى رعاية كلبها «بنتلى» العريق ابن الأصول الكلبية الإنجليزية الارستقراطية،

ولما تعارضت أوقات فسحة الكلب مع جلسات الآلة الكاتبة، وافقت فى إذعان على رعاية الأستاذ الكلب، أثناء توليها مهام النقش على تلك الآلة الجهنميـــة التى استعصت علىّ. وأصبحت Dog Sitter أو جليسة كلاب على آخر الزمن.

ولما كنت من تلك الفئــة المنــاهضة للتعــاطف مع الجنس الكــلابى، كانــت المهمة صعبة مـؤلمة، لكن كل شىء يهون أمام البحــث وسنينه «لاحظـوا وتأكدوا أنها كــانت تنقل البحث ولاتؤلفــه لى» لأنى شقيت وتعبت فى البحث والتنقيب بين الكتب وأفلام الميكـروفيلم ومعلومات الكمبيوتر.

ولما كان الأستاذ «بنتلى» مدعـوا على حفل عيد ميلاد كلبة الجيران كان علىّ أن أحمل الهديــة وكعكة عيــد الميلاد التــى صممها الجزار فى السوبــر ماركت حسب الطلب وذهبت مع الأستــاذ «بنتلى» لحفل عيد الميلاد. وضعوا الشمع فى الكعكة البفتيك ولبس الضيوف «من الكلاب فقط» الطراطير الملونة ووقفــوا جميعا فى دائرة.. الكلاب وأهل الكلاب يغنون «هــابى بيرث داى تو يــو: سنة حلــوة ياجميل» وأنــا أتمتم فى سرى «تعالى لى يا أمه شــوفى بنتك عشت وشفت اليوم الذى أغنى فيه للكلاب».

قتيل.. في البلكونة

جلست فى الشرفة أتأمل القمر وأعد النجوم وأحسب الدولارات المتبقية من المرتب المقصوف بعد عملية استئجار البنت «فيكى» كتيبة ملاكى وكانت السماء صافية والجو جميلا، وفجأة زمجرت السماء ورقصت تلك الثعابين الكهربائية المرعبة فى الأفق الرمادى.. شعرت بخوف أسطورى... وتذكرت نصيحة السيد الدكتور رئيس القسم حين أعربت له عن شعورى بالاكتئاب والحزن من تغيرات الطقس وعمايله وأننى أصاب بالذعر لدى سماع صوت الرعد ورؤية البرق وأن موروثى الشعبى عن الأجواء المضطربة من رعد وبرق وسيول محصور فى مشهد البطلة على الشاشة الفضية وهى تضع المولود الرضيع على باب الجامع، قلت له: يوم تمطر السماء فى بلدى نجلس ونكن فى بيوتنا وربما لانذهب إلى العمل وإذا انشقت السماء عندنا

فهذا يعنى طاقة القدر لكنها عندكم طاقة رعب.. طاقة جهنم.

انزعج واندهش وقال لى:

يانفرتيتى العزيزة.. الطبيعة رائعة وممتعة فى كل صورها.. تعلمى الاستحمام بقطرات المطر.. دعيها تداعب وجهك تغسل همومك تعلمى الاستمتاع بثورة وعنفوان وانطلاق وانغلاق البرق من أغلال السحب المتآمرة. أليست هذه أجمل لوحة تشكيلية فى العالم لايمكن أن تضاهيها ريشة ليوناردو دافنشى ولابيكاسو؟ تعلمى الاستمتاع بسيمفونية الرعد الهادرة، بهذا التوزيع الأوركسترالى لثنائية قطرات المطر وضربات القدر فشر «بيتهوفن» فى زمانه.

يا للفرحة.. إن الطبيعة الهادرة هى أجمل معرض فنى فى التاريخ.. إن البرق والرعد والمطر تمثل احتفالا أسطوريا ومهرجانا للمشاعر الإنسانية إنها التجسيد لمعانى الغضب والثورة والإثارة والبهجة والعنف والقوة. إنها لحظة تطهير نادرة للنفس البشرية.. طهرى روحك الحزينة، فكى قيودها مع غضب سحابة مزمجرة.

فلما أرغت.. وأزبدت وأبرقت وأمطرت قلت لنفسى: اغسلى همومك يابنت تحت قطرات المطر ووقفت أنشد:

مطر .. مطر .. مطر.. وفى كنتاكى يسقط المطر.

وقفت أغتسل بالمطر وأرتعد من البرد محاولة فى يأس الاستمتاع بذلك الزئير والزمهرير وأسنانى تصطك أطك.. طك.. طك» وركبتاى

ترتعدان وأنا أردد قصيدة بدر شاكر السياب الرائعة..

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر.

وكانت بالفعل ساعة سحر والشرفة ثلاجة راح ينأى عنها القمر.

والمطر يتساقط فى سباق مذعور وجنونى. فجأة أدركت أن السماء تمطر دما.. دما.. دما.. نعم تساقطت قطرات المطر حمراء قانية. الدكتور رئيس القسم لم يذكر أن اللوحة ستكون بالألوان الطبيعية. سينما سكوب. نسيت عملية غسيل الهموم وأصابتنى حالة رعب وهلع، رفعت عينى إلى أعلى فإذا بالمطر الأحمر القانى يتساقط من الشرفة العليا من عند الجيران ويا للهول على حد قول الأستاذ يوسف وهبى رحمه الله، وياللهوى على حد قول زينات صدقى رحمها الله. هرعت إلى جارتى العجوز التى كانت تصنع لى البسكويت الأمريكى المعجون بالشيكولاته وسألتها النجدة، هرعت بدورها إلى جارنا السباك وزوجته ووقفنا جميعا فى شرفتى نتشاور فى تلك المصيبة. قلت البوليس ياجماعة الخير.. النجدة ياشرطة النجدة ووصلت النجدة وحضر ضباط الشرطة وحضرت أول جريمة فى حياتى وتذكرت عادل إمام.. الشاهد اللى ماشفشى حاجة.. قلت للضابط الأمريكى المدرع بالمسدسات والتوكى ووكى:

ياحضرة الضابط أنا كنت أتفاعل مع الطبيعة وأتناغم مع

سيمفونية الرعد وأغسل همومى فى سيمفونية المطر، أنا شاهد ماشفش حاجة ده أنا وافدة غلبانة.

اكتشفنا أنه «صدقوا أو لاتصدقوا» جارتنا التى تسكن فى الشقة العلوية التى تعمل راقصة استربتيز محترمة وجدت قتيلة فى البلكونة.. قتلها زوجها الغيور فى نوبة غضب ويبدو أنه تفاعل بشكل زائد حبتين مع سيمفونية الطبيعة وثورة البرق وزئير الرعد ـ جريمة عاطفية، كل يوم عشرات من الجرائم العاطفية أكثر من الهم على القلب. هكذا علق ضابط الشرطة فى بلادة. وكانت ليلة..

وإن كنت قد عقدت هدنة مع صنف الكلاب، وقمت باتفاقية تطبيع مع الطبيعة الهادرة المغامرة، ووقعت على معاهدة صلح مع المطر والثلج والبرق، إلا أننى لم ولن أقبل الحياة مع الأشباح والعفاريت وقتيل فى البلكونة.

بدأت ملحمة البحث عن شقة من جديد.. وكان سؤالى الأول لصاحب الملك..

ـ عندكم سكان راقصات متزوجات يامستر؟.

خلى السلاح .. صاحى!

صديقتى الجرسونة الحافية راعية القطط والكتاب ذهبت فى إجازة عيد الشكر الأمريكى لزيارة الأسرة الكريمة. وعيد الشكر هو العيد الأمريكى الذى يشكرون فيه الله على أمريكا يعنى يقول فيه كل أمريكى «أحمدك يارب».

وحكاية «عيد الشكر» تعود إلى عهد ملك انجلترا «جيمس الأول» حين اختلف بعض الفلاحين الإنجليز مع كنيسة إنجلترا، فقال الملك جيمس: إما أن يذعنوا لنا أو أطردهم من المملكة، ولم يذعنوا فطردهم وشحنهم على سفينة اسمها «ماى فلاور» حيث أبحروا إلى العالم الجديد ونزلوا فى «بليموث» بولاية ماساشوستس فى الشمال الشرقى الأمريكى وسموا أنفسهم الرواد الأوائل، وعقدوا معاهدة صداقة مع السكان الأصليين من الهنود الحمر الذين علموهم زراعة الأرض

بالـذرة، وعلموهم كيف يأكلـون كيزان الذرة وكيف يطبخـون طائرا أمريكى الأصل اسمه «الديك الرومى».

وفى العام التالى حين حان وقت الحصاد قاموا بدعوة الهنود الحمر على مأدبة طعـام لشكر اللـه على الحصاد الـرائع وكان هـذا أول عيد شكر فى تاريخ أمريكـا ومن ثم فإن يوم الخميس من شهر نوفمبر كل عام يقـوم فيه الأمـريكيون سـواء كانـوا من المسيحيين أو اليهود أو المسلمين أو البوذيين فإنهم جميعـا يحتفلون معا بعيـد الشكر على أن الله منحهم أمريكا.

شعرت بتعاسة ووحدة رهيبة أثناء إجازة عيد الشكر حيث سافر الجميع للاحتفال مع الأهل بكيزان الذرة والديك الرومى الذى يأكلون معه مربى توت.

جلست وحدى بين أربعة جدران أتجول داخل الدولاب حتى عادت لى صـديقتى فيكى من الإجـازة بمفاجـأة، عادت فيكى بأنـف جديـد وشامخ. أنف أنيق مـرفوع فى إباء وشمم، الحقيقـة تحولت فيكى بعد عملية تجميل الأنف إلى صاروخ هوليوودى.

سألتهـا من أين لك هـذا يـافيكى، أيتهـا الجرسـونـة الحافيـة، فأفصحت لى أن الأنف الجديـد هديـة من الوالـد الكريم، نعم أهـداها والدها فى عيد ميلادها عملية تجميل تكلفت ثلاثة آلاف دولار..

واكتشفت فيما بعد ....

أن الوالد الكريم مليونير يسبح فى أمواج خضراء من الدولارات سألتها فى بلاهة:

ـ ولما والدك ولامؤاخذة فى هذه الكلمة و«سورى» يااختى مستور وفل وعشرة، وانتم أغنيـاء ومليـونيرات، لماذا إذن كل هـذا الغلب والمرمطة والبهدلة وخدمة كل مـن هب ودب على الموائد. جرسـونة يافيكى جـرسونة.. عيب عليكى.. آه لو عـرف أبوك سيتبرأ منك ومن فضيحتك؟! قالت لى:

ـ إنه يعرف!

ـ بـالتاكيد حلف يمين طلاق بالتـلاتة إنه سيقتلك لو كـررت هذه الفعلة الشنعاء ومرمغت شرف العائلة الثرية فى الوحل الأمريكى.

اعتقـدت «فيكى» أن منطقى معكـوس وأكـدت لى أنها مثلهـا مثل معظم الطلبة تتحمل مسئولية تعليمها مسئولية كاملة وإنها لايجب أن تمد يدها لا لوالدها ولا لجنس مخلوق.. القاعدة أن ينفق الإنسان على نفسـه والاستثنـاء هـو أن ينفق الأهل على الأبنـاء، ذهلت فيكى حين حكيت لها أننـا فى الشرق نحمل الأهل نفقـات التعليم والمأكل والملبس ونفقات أفـراحنا وتجهيز بيوتنـا من الإبرة لغسالـة الأطباق، وفيكى ليست وحدها بل معظم الطلبة والطالبات يعملون من أجل الإنفاق على التعليم حتى لو كانوا من أغنـى الأغنياء لأن العمل على حد قولها ليس مرمطـة أو بهدلة بل قيمـة إنسانية عظيمـة.. وبالمنـاسبة ظلت فيكى

تعمل عندى عبدة ذليلة وأجيرة.. كتيبة ملاكى على الآلة الكاتبة وأنا مازلت أعمل جليسة كلاب عند الأستاذ «بنتلى» الكلب.

تعرف بنتلى الكلب الارستقراطى على كلبة جارتنا الأنيقة وأقمنا لهما حفل زفاف فى مدخل العمارة ووضعنا فيه الطرحة البيضاء على رأس الكلبة «ريتا» ومرت شهور وأنجبا كلبا صغيرا جميلا أطلق عليه بنتلى كلمة وفاء.. لجليسته المصرية اسم «ممكن» أعجبت أمه فيكى الموسيقى الموجودة فى كلمة «ممكن».. ممـــ .. كن، العربية وكل شىء فى أمريكا ممكن.

زادت مسئولياتى فى قسم رعاية الكلاب المركزة وأصبح عندى الأستاذ بنتلى وولده.. والذى زاد وغطى وجعل ليالينا سوداء أن الأستاذ «ممكن» مرض بالصفراء واضطرت فيكى لكسر الوديعة البنكية لعلاج «ممكن» فى مستشفى تخصصى للكلاب وإجراء عملية جراحية فى الكبد وكانت فيكى تكتب لى الأبحاث على الآلة الكاتبة وأنا أقوم بتمريض «ممكن» وإعطائه المضاد الحيوى أثناء ساعات الليل والنهار وأضبط المنبه للاستيقاظ فى الثالثة صباحا موعد حقنة المضاد الحيوى.

غابت نانسى عن الجامعة لمدة أسبوع، لاحس ولاخبر ونانسى كانت طالبة نجيبة دؤوبة من أشطر الطالبات فى فصلى الدراسى وكانت تحصل على الدرجات النهائية لاتتأخر لحظة عن موعد

المحاضرة.

وكانت عادة نانسى التى كادت تصيبنى بسكتة قلبية فى أول محاضرة أن تستلقى على ظهرها على أرض قاعة الدرس مشهرة ساقا على ساق فى وجهى تهز قدمها الصغير المحشور فى الحذاء الكوتشى الممزق وترتدى الشورت الجينز وتمضغ اللبان الأمريكى وتناقشنى فى أصعب النقاط الفلسفية والسيكولوجية لحركة الممثل.

كانت نانسى مثلها مثل معظم الطلبة تتعامل مع الدرس من منطلق القيمة الفكرية وليس من منطلق السلوك الظاهرى، فى البداية غضبت وأبديت الاحتجاج والشجب لهذا النوع من الاستهتار السلوكى لكنى مع مرور الوقت فهمت عبارة:

"Take it easy"

وهى دعوة لمعالجة الحياة ببساطة ويسر وسهولة، أدركت أن «نانسى» وغيرها من الطلبة يتمتعون بالرغبة الشديدة فى التعلم والاحترام الكبير للمعرفة وللموهبة والتقدير الشديد لإمكانياتى وثقافتى الكلاسيكية الروسية التى كانت تعتبر بالنسبة لهم «كنز على بابا» لأننى تعلمت أصول التدريب الحركى على الطريقة الروسية التى تعتبر بمثابة عملة نادرة فى أمريكا.

وبعد أن عقدت صداقات قوية مع طلبتى، لم يعد يهمنى كيف يجلس الطالب أو إذا كان يتشدق باللبان لأنى تأكدت أنه لاعلاقة بين

هذا السلوك التلقائى البسيط وبين قيمة الاحترام المتبادل والحرص على التعلم..

ماعلينا.. عادت نانسى بعد غياب أسبوع فى حالة نفسية وصحية متدهورة سألتها:

ـ مالك يانان «اسم الدلع» الاختصار هو طريقة التدليل الأمريكية وقد يصل الأمر بالبعض لتسميته الأولاد فى «شهادة الميلاد» بالحروف فقط لاغير يعنى واحد اسمه B.G وآخر اسمه M.T وطبعا كلنا نعرف بطل دالاس J.R، ماعلينا عرفت من نانسى إنها كانت تمر بمحنة عصيبة فلقد اغتصبها مجرم جبان فى المنتزه العام حين كانت فى طريقها إلى مكتبة الجامعة.

اغتصاب.. ياللمصيبة.. أين البوليس.. أين القانون.. هى البلد سايبه.

واكتشفت فيما بعد.....

أن الاغتصاب حكاية عادية يومية متكررة، وصل معدل جرائم القتل وحده أربعة وعشرين ألف جريمة فى السنة وهناك جريمة اغتصاب كل ٣ دقائق، آخر الإحصائيات تقول بأن ٨٣٪ من الشعب الأمريكى مهدد بحدوث جريمة له.

الأغرب من ذلك أن الغالبية العظمى من الطالبات مرت كل واحدة منهن بتجربة مرعبة مماثلة بشكل ما. فإن لم يكن فى الشارع فقد تقع الجريمة داخل جدران المنزل ومن أقرب الأقربين مما يثير فى النفس

الاشمئزاز والذعر والقرف.

وبمناسبة مصيبة نانسى بدأت كل واحدة تستعيد قصة مريرة.

الأمريكيون يحكون كل شىء بصراحـة.. وكل واحد عنده مصيبة يحكيها على الملأ، وعلى شاشات التليفزيـون نشاهد برامج الاعترافات المثيرة التى تتحول أحيـانا إلى مشاهد دراميـة تراجيدية ينفجـر فيها الشخص الـذى يدلى بـاعترافه أمام الكـاميرات باكيـا فى نوبـة نحيب وعويل، حتى كبار النجوم. ووصل الأمر إلى مقدمات البرامج يشاركن فى الاعترافـات ومن أشهـر الحوادث حكايـة مقـدمة بـرامج سـوداء محبوبة كانت تجرى حوارا على الهواء مـع بنات وسيدات من ضحايا الاغتصاب وجرائم المحارم، فجأة بـدأت تندمج فى الموضوع وتعترف على الملأ بجريمة والـدها الحقير أثناء طفولتها وهم يـؤمنون بأن هذه عملية تطهير وعلاج للنفس المثقلة بـالآلام والذنوب ويطلقون على هذا الأسلوب الخروج من الخزانة، أو من داخل الدولاب

"Getting out of the closet"

اكتشفت فيما بعد...

إن كل من هب ودب يـريـد أن يخرج من الخزانـة بحجـة التطهير والوضوح والصدق.

الشواذ يـريدون الخروج من الخزانة والحياة فى النـور، والشواذ أشكال وألوان، أشياء تشيب لها شعر الـوليد، ماعلينا.. سألت نانسى لماذا لم تبلغ الشرطة عن حادث الاغتصاب فـأكدت لى هى والبنات أنه

الخوف من انتقام المجرم الذى عادة مايطلع مثل الشعرة من العجين هذا إلى جانب إن الإجراءات التى تتبع فى قسم البوليس للتأكد من حادث الاغتصاب مهينة ومؤلمة للغاية، فى كثير من الأحيان تلقى المسئولية على الفتاة ومن ثم فإن معظم ضحايا الاغتصاب يلتزمن الصمت.

الغريب أنه فى ظل هذا المجتمع المنفلت من كل الضوابط حيث لايوجد ماهو أسهل من وصول رجل إلى امرأة سواء فى شكل علاقة عاطفية أو لا.. تزيد نسبة جرائم الاغتصاب.

علماء النفس يؤكدون بأن الجنس ليس هو الهدف فهو متوفر وبكثرة فإن الإنسان الذى هرسته الحضارة الغربية ومارس الحرية حتى آخر قطرة لم يعد يبحث عن الجنس الذى فى متناول يده بل أصبح يبحث عن الجنس الممزوج بالعنف وبالقسوة وأهم من هذا وذاك بروح المغامرة الشريرة والإحساس المريض بالانتصار والغلبة والمصيبة أن نصيحة البوليس شخصيا للمرأة بالأ تقاوم حتى لا تقتل، وفى حالات السرقة النصيحة «شرحه» لاتقاوم حتى لا تقتل.

صرخت ، و«الحل يابنات؟» شعرت أن الجريمة تقترب من حياتى وتقتحم شعورى الشرقى بالأمان وبأن الدنيا بخير.

قالت فيكى :

«علينا بدروس الكاراتيه والكنغ فو «والتحقت بفصل الكاراتيه للدفاع عن النفس وكانت هى المرة، كلما حاولت الزئير الكاراتيهاوى

المعروف «هاها هووه» صدرت منى أصوات مسرسعة لابد أن تصيب أى مجرم بنـوبـة ضحك فيتركنى لحالى ثـم أنـا صحتى على قـدى وعظامـى ضعيفة سوف أكسرهـا فى دروس الدفـاع عن النفس ومن الأفضل أن أحتفظ بها لأكسرها فوق رأس أى مجرم وعـرفت الطريق إلى «الميس» وهو أمان وضمان الإنسان الغلبان.

وهو رشاش أو بخاخة فى حجم الولاعة أعلقها مع سلسلة المفاتيح وحين أشعر بالخطر يقترب منى اضغط عليها فى وجه المهاجم فيصاب بحالـة شلل مؤقتـة، ويتجمد فى مكـانه كما قـالب الثلج، حملت معى سلاحى الجديد فى الرايحة والجاية وأنا أغنى «خلى السلاح صاحى.. صاحى.. صاحى..» ماحدش ضامن عمره فى البلد دى!

توم كروز.. للبيع!

كانت هناك سحابة من الغم والهم والاكتئاب تغلف نفوسنا. «ممكن» فى المستشفى طريح الفراش وقد تدهورت حالته بعد إجراء الجراحة الدقيقة ومازال «يهوهو» فى العناية المركزة. و«بنتلى» فى حالة اكتئاب على ولده فلذة كبده. وفيكى فى حالة انهيار عصبى وحزن مقيم تبكى ليل نهار «ممكن.. ممكن مـاى دارلنج» حتى أصبحت عيناها فى حجم الطماطم. ونانسى مازالت تصاب بكوابيس الاغتصاب الرهيب، وتوابع حادث المطر الأحمر مازالت تطاردنى فى صحوى ومنامى.

أسلوب التفكير العملى الواقعى الأمريكى جعل مارى تقترح علينا الخروج من دائرة الكآبة ودوامة اليأس بقضاء أمسية ممتعة. وقالت إن السهرة تحلى فى «موقف الأتوبيس». فلاقت استحسانا كبيرا

وموافقة بالإجماع.

موقف الأتوبيس؟ فى إيه فى الأتوبيس ياجماعة؟

ضحكت البنات وتغامزن وتلمزن.

ــ مفاجأة الموسم أيتها الشرقية المحافظة. اليوم أنت مدعوة (مدعوة على الطريقة الأمريكية، كان زمان!) موقف الأتوبيس لايقف عليه إلا من هم تحت حد الفقر. الأتوبيس فى الأرياف لايركبه إلا الغلابة والمساكين من أمثالى الذين لايملكون سيارة. وفى أمريكا كل من هب ودب لديه سيارة. والسيارات المستعملة رخيصة للغاية.

إذن ماذا سنفعل فى موقف الأتوبيس؟.. حتى الوقوف خطر فى الشارع فى مثل هذه الساعة.

ربما يقصدون مسرحية موقف الأتوبيس.. وهى من أشهر المسرحيات الاستعراضية الغنائية.

واكتشفت فيما بعد...

أن موقف الأتوبيس اسم المطعم الذى ذهبنا إليه، وياليتنى ماذهبت. المطعم للنساء فقط! يعنى الزبائن «كلهن» من الجنس اللطيف حتى يجلسن على راحتهن. قلت للبنات: خير يابنات، عندنا فى البلد الرجال فقط هم الذين يفضلون الجلوس على راحتهم، يدخنون ويلقون بالنكات الخارجة ويتحدثون فى السياسة أو الكرة أو «الستات».

أما نحن فلسن فى حاجة إلى ذلك، مالها قعدة المطبخ الجميلة.

المفاجأة التى ادخرنها لى ، هى أن المطعم للنساء فقط لكن جميع الجرسونات من الشباب السينمائى!

يعنى كل جرسون يشبه نجما سينمائيا من نجوم هوليوود ويقلده (غير أن أمه لم «تدعو» له) فانتهى به الحال فى موقف الأتوبيس فى وظيفة جرسون «شبه نجم».

صرخت المائدة المجاورة فى صوت واحد وقد حلت عليها مجموعة من النساء الشمطاوات، صنف مرضعة قلاوون. توم كروز .. توم كروز للخدمة هنا.. وأخريات طالبن بكلينت إيستوود.. أما الشابات اليانعات الزميلات فقد طالبن بعمر الشريف (تحية) للزميلة الشرقية المحافظة.

بعد العشاء حدث هرج ومرج، وفهمت أن هناك استعدادات للاستعراض الراقص. المفاجأة المذهلة هى أن كل شبه نجم من هؤلاء يقدم استعراضا راقصا. يكشف فيه عن عضلاته مثل أبطال حمل الأثقال أو المصارعة الحرة بعد أن يخلع ملابسه قطعة قطعة وكأنه يتمشى فى عز الشمس على شاطىء الريفييرا والحاضرات يصفرن ويصفقن ويشجعن.

انتابتنى حالة غضب وثورة عارمة، بنات ونسوة خلعن برقع الحياء صحيح واللى اختشوا ماتوا. جاء اليوم الذى تتفرج فيه النساء على الرجال، «وتقولون لى تحضر وتقدم ودول متخلفة». إن التقدم

والتخلف مطاط فى القاموس الأمريكى.. هذا مشهد يثير حفيظتى الشرقية ويحرك مشاعر الاشمئزاز والقرف.

قلت للبنات :

ـ آسفة.. أرفض هذا الرقيق الأبيض.. وعندكم عين للشكوى من استغلال صورة المرأة وترفضن الشعارات للدفاع عن حقوق النساء.

بصراحة شعرت برغبة شديدة فى القىء، وصممت على ترك موقف الاتوبيس على الفور حتى لو عدت سيرا على الأقدام.

حاولت البنات إقناعى أن الموضوع مجرد مزاح وضحك برىء! إلا أننى كنت غاضبة لدرجة أننى عدت إلى لغتى العربية عن دون قصد وصرت أردد: اللى اختشوا ماتوا.. اللى اختشوا ماتوا صحيح.

سألتنى فيكى ماذا أقول بالضبط. حكيت لها الحكاية التى تعود إلى مصر المملوكية والتى أصلها... أنه فى يوم من الأيام شب حريق فى أحد الحمامات العامة، مثل (حمام الملاطيلى) . والذين لم يستحوا أى لم يختشوا فروا من الحمام إلى عرض الشارع عراة كما ولدتهم أمهاتهم. أما الذين استحوا (أى اختشوا) فأبوا الخروج عراة فشوتهم النار وامتلأ التراث بالإشارة إليهم فى العبارة الفلكلورية المألوفة اللى استحوا (اختشوا) ماتوا، وبقيتها إن الذين (لم يستحوا) عاشوا.

وأنا ياعزيزتى فيكى من أحفاد اللى استحوا ومن سلالة اللى اختشوا..

ويحيا الشرق المحافظ.

مطعم المفاجيع!

فى الأسبوع التالى حاولت البنـات الاعتذار وتعويضى عن الأضرار النفسية والعصبية (بعدما عرفوا حكـاية اللى اختشوا ماتوا) الواقعة على محسوبتكم الشرقية المحافظة.

أقسمن على دعوتى (بحق وحقيق) فى مطعم All you can eat يعنى كل .. حسب قدرتـك.. كل على كيفك.. اطلب مرة واثنتين وعشرا ولايهمك لأن هـذا المطعم يطبق نظريـة العدالـة فى الدفع والفـائض فى الخدمـة. يعنى تـدفع مبلغـا محددا، وتظل تأكل وتأكل حتى تصـاب بتخمة ولن تحاسب إلا على وجبة واحدة فقـط.. وهذه سلسلة مطاعم متواضعة لأبناء الطبقـة المتوسطة ترضى نزعـة استهلاكية شرهة فى نفس المواطن.. ياموا طن.

وتقدم فيها أنواع السمك المختلفة والكـابوريا العملاقة والجمبرى

والاستاكوزا وشتى أنواع القواقع.

والنظرية الاقتصـادية أيها الأخوة والأخوات تـرتكز على أن هناك شبعا بعد جوع. يعنى مهما أكل الإنسان والتهم فى نهم فلابد للأكل أن يشبع ولابد للمكسب أن ينتصر.

والنظريـة الاقتصادية تؤكـد أنه إذا كان الإقبـال كبيرا والأسعار رخيصـة، فإن المكسب مضمـون ومأمون حتى لـو أكل النـاس ملء بطونهم.

وفى ظل سياسة التقشف والتوفير وفواتير الكتيبة الملاكى «فيكى» التى علمتنى أن الصـداقة شىء والشغـل شىء.. يعنى «بيزنس إيـز بيزنس» أدفع مرتبها أول الشهر لايتقـدم يوما ولايتأخر يوما. وعلى ضـوء مـاسبق قبلت الـدعـوة خـاصـة وأن معـدتى «مششت» من البطاطس.

لكنى سألت قبل أن تطأ قدماى المطعم.

ـ وماذا عن الجرسونات؟

أجابت فيكى بثقة:

ـ من فئة اللى اختشوا ياعزيزتى.

وقد يكـون الجرسونـات فى هذا المطعم من فئـة اللى اختشوا، لكن بالتأكيد هـذا القول لاينطبق على الزبائن الذين جـاءوا ليأكلوا فى آخر زادهم.

إنــه مطعم المفاجيع، يجب أن يأتى الـزبـون مدججـا بالـوقاحـة والبرود حتى يطلب مرة واثنتين وعشرا.

الغريب أن الزبائن كانـوا يطلبون ويكررون الطلب والجرسونات يضحكون ويـداعبون الزبـائن وقد جعلـوا من قضية الطعام مـزحة ونكتة دون حساسيات أو كسوف أو إحراج.

الناس أتت من أجل قضاء وقت ممتع ولقمة شهية وخدمة ممتازة. والأمريكيون هم الذين اخترعوا «الخدمة الممتازة».

والجرسون يأتى إلى المائدة ويقدم نفسه بالاسم قائلا:

ـ أنا اسمى بول، سأصـاحبكم على العشاء وأكون تحت أمركم ثم يقدم قائمة الطعام وهو يبتسم ويتبادل أطراف الحديث مع الزبون.

سألت فيكى: وإحنا مالنا.. كلما دخلنا مطعما يقدم لنا الجرسونات أنفسهم، هو إحنا جايين ناكل ولانطلب القرب؟

واكتشفت فيما بعد..........

أن الخدمة الممتازة لها أصول وقـواعد وأولها أنك يجب أن تعرف اسم الشخص الـذى يخدمك حتى تشعر بـالارتياح التـام.. ضحكت فيكى وطلبت منى للمرة الألف.

ـ تيك إت إيزى Take it easy

واستغرقت فى تفكير عميق، هل يمكـن أن ينجح مثل هذا المطعم فى بلدى؟ وهل يمكن أن تنجح تلك النظرية الاقتصادية!.

لغز قتيل الدور الثالث والعشرين!

فى غمرة الصلح خير وإنقاذ ما يمكن إنقــاذه ومحاولة إصلاح آثار حادث موقف الاتوبيس، اقترحت نانسى أن أتعرف على الوجه الثقافى المحترم للمطعم الأمريكى «ابن الناس».

ـ كيف يصبح المطعم ثقافيا ياأختى يانان؟ المطعم له علاقة بالمعدة والتذوق والطعم اللذيذ، فكيف يكون المطعم ثقافيا يا أختى وله علاقة بالعقل والتذوق الفنى؟

ـ إنه مسرح العشاء!!

وفى مسرح العشاء يشــاهد رواد المطعم وهم يجلســون على موائد

العشاء مسرحية كاملة أثنــاء تناول وجبة شهية من الاستيك الهرقلى وأكــواز الذرة المسلــوقة والبطــاطس المحمــرة. وهم بذلك يضربــون عصفــورين بحجر. مسرح ومطعم بتــذكرة واحــدة . ونظريــة «اثنين لواحــد»، نظرية اقتصاديــة تسيل لعاب المستهلك ويعرفها البــائعون جيداً، حيث يقنع البــائع المشترى إنه يدفــع ثمن منتج واحد ويحصل على اثنين... يعنى واحد ببلاش. ماعلينا..

مسرح العشاء طبعا لا يعتبر من المسارح المحترفة تماما، وعادة ما يعمل فيه الممثلون الفاشلون الذين لفظتهم المسارح المحترفة. لكن هذا لا ينفى أنه يخرج من بينهم أحيانا مواهب كبيرة.

وكانت المسرحيــة فى تلك الليلة الليــلاء ماكبث لشكسبير. وهى غير مناسبة على الإطلاق لا لغداء ولا لعشـاء.

المسرحية تــراجيدية وكئيبــة تجعل اللقمة تقف فى الحلق، وتصيب المتفرج بتلبك معوى.

وماكبث معروفة فى تــاريخ المسرح بأنها مسرحية «نحس» ووشها يقطع خميرة المشاهدين من أى مسرح.

قلت لنفسى: خير اللهم اجعلــه خير... وتــذكــرت دروس تــاريخ المسرح وأن الرئيس الأمريكى لنكولن تم اغتياله وهو يشاهد مسرحية ماكبث.

وهذه ماكبث وأنــا أعرفها جيدا. لقــد وصل الأمر ببعض المسارح

الكبرى إلى التقاعس عن تقديم المسرحية من فرط التشاؤم.

تفرجنا على ماكبث وعدنا إلى منازلنا سالمات والحمد لله. لكن، أبدا هذه ماكبث وأنا أعرفها جيدا، فكيف تفوت الليلة على خير. بعد منتصف الليل، استيقظنا جميعا على صرخة تشق عباب السماء وصوت ارتطام رهيب.

للوهلة الأولى تصورت أن الحرب العالمية الثالثة بدأت، أو أن قنبلة انفجرت.. العمارة بها كثير من اللاجئين الإيرانيين الهاربين من سعير الثورة الخومينية!

يمكن ثأر بايت للمافيا.. هناك ثلاث عائلات إيطالية من صقلية وهؤلاء صعايدة المافيا، ومعروفون فى أمريكا بأنهم فئة «الجريمة المنظمة» Organized Crime يعنى تنظيم إجرام مع سبق الإصرار والترصد عينى عينك والبوليس لا يقدر عليهم... لكن هؤلاء يتركزون فى نيويورك والمدن الكبرى، مالهم ومال الريف الهادىء.

بعد قليل... حضر البوليس.

وحضرت ثانى جريمة فى حياتى... عن كثب

كلمة جريمة كانت بالنسبة لى من قبل، كلمة خيالية مفرغة من معناها الحقيقى.. الجريمة كانت عندى رواية مثيرة لأجاثا كريستى أو فيلم بوليسى لأستاذ الرعب السينمائى هيتشكوك... كانت الجريمة بالنسبة لى وهما وخيالا، فأصبحت حقيقة لا احتمالا.

الجريمــة كانت خبرا فى الصحيفــة أو على شاشــة التليفزيـون يفصل بينى وبينها الـواقع، فجأة أصبحت على عتبة بيتى، جـزءا من حياتى اليومية.

انتشر الخبر.. الساكن فى الدور الثالث والعشرين سقط من الشرفة «تانى»!

من الجانى؟ الفـــاعل مجهـول، ربما انتحــر، ربما دفع بـــه أحــد لاندرى.

ظل لغز قتيل الدور الثـالث والعشرين مبهما، وبالطبع لم أفكر فى الانتقــال من المبنى فقط، بل من المدينـة بأكملهــا، خاصــة وأن العــام الدراسى قارب على الانتهاء.

وفى نشرة الأخبـار المحليـة التليفزيـونيـة عـرفنـا السبب، وبطل العجب.. عفوا

زاد العجب، والدهشــة. الجريمة عاطفيــة، قديمــة. كل يوم من ده، أكثر من الهم على القلب. لكن هذه المرة القــاتل ليس حبيبة القلب، بل حبيب القلب. وأعوذ بالله من غضب الله.

الأستاذ «المجنى عليه» القتيل، كان يعيش مع صديقه وتحتها ألف خط.

أستغفر الله العظيم. وهذه الفئة من الرجال الشواذ يطلقون عليهم فى أمريكا لقب gay لأنهم رفضوا تماما لفظ شاذ واعتبروها إهانة.

وكلمة gay تعلمناها فى المدارس بمعنى إنسان مرح، محب للبهجة

والانبساط، فقدت الكلمة معناها الأصلى وأصبحت صفة لجنس ثالث وأعوذ بالله من غضب الله.

القتيل «المرح» أدى به مرحه إلى حتفه. فقد هجره حبيب القلب مع «مرح» آخر. فأكلت الغيرة الحبيب الأول وفى مشاجرة عاطفية ملتهبة ألقى به من الدور الثالث والعشرين «قلت لكم جريمة عاطفية». الشىء المثير للدهشة والملفت للنظر أن الجميع كانوا يناقشون فكرة الخيانة وأن القتيل يستحق ما جرى له لأنه خائن. أما حكاية العلاقة الشاذة «أعوذ بالله» فلم تلفت انتباه أحد.

سألتنى فيكى:

- مارأيك فى الأبعاد الإنسانية لهذه الجريمة العاطفية؟

من الجانى؟ ومن المجنى عليه؟

قلت لها :

- يافيكتوريا يا أختى، الحقيقة كان يجب أن يأخذوها من قاصرها ويقفز الثلاثة سوا سوا مع بعضهم مرة واحدة من الدور الثالث والعشرين ويريحونا.

والله سبحانه وتعالى خلق آدم وحواء، ولم يخلق آدم وجورج، جهنم وبئس المصير.

اعتبرتنى فيكى متخلفة رجعية.

ابتسمت فى فخر وثقة وقلت لها:

يحيا الشرق المحافظ.

كوكاكولا ولبان .. وبنيويّة!

لاقى الفصل الذى أقوم بتدريسه وهو مادة حركة الممثل نجاحا كبيرا فى الفصل الدراسى الأول ومن ثم طلب منى «بيرت» رئيس القسم أن أقوم بالتدريس يوميا بناء على طلب جماهير الطلبة، لكن الشرط نور بدون أى زيادة فى قيمة المدحة. قبلت هذا الشرط وحاولت تقليد «ستيف» واتصلت بالطلبة قبل بداية الفصل الدراسى للإعداد التمهيدى للمادة.

اكتشفت بعد مناقشات طويلة مع «ستيف» أن نجاح الطالب ونبوغه يعنى نجاح ونبوغ الأستاذ.. وهذا هو المقياس الحقيقى. يعنى لم يكن الدكتور «ستيف» يهتم بالطالب، لأنه رجل ابن حلال وطيب أو لأنه مخلص ودؤوب فى عمله فقط، بل لأنه يرى أن النجاح نتيجة يقتسمها الأستاذ والطالب. يعنى لو رسب عدد كبير من الطلبة، فهذا

يعنى أن الأستاذ راسب هو الآخر فى مهنته!

ولو تفوق الطلبة ونبغوا فهذا يعنــى أن الأستاذ نابغة، والحمد لله طلعت نابغة.

فى نهاية العام الدراسى نجح طلبة فصلى جميعا بتفوق، وأقاموا لى حفل وداع جميلا فى حديقة الجامعة. وقـدموا لى هدية «تى شيرت» أو القميص القطنى الأمريكى الشهير وقـد طبعوا عليـه خصيصا اسمى والعام الدراسى وعبارة «نحن نحب نفرتيتى» ويحيا الشرق المحافظ.

وبمناسبــة الـ«تى شيرت» تعلمت قيمــة الأشياء الصغيرة كهـدية تحمل أكثـر من معنى، فليس المهم هـو ثمن الـــ«تى شيرت» بل المهم الفكرة والمجهـود فى أن القميص فريـد من نوعـه بطبع الاسم والسنة الدراسية مما يضفى خصوصية جميلة على الهدية. وقد تغير أسلوبى تماما فى ارتـداء الملابس وأصبحت الـ«تى شيرت» قطعة أســاسية فى دولاب ملابسى، ففى الأسبوع الأول من الدراسة كنت قد تأنقت على سنجـة عشرة وارتـديت طـاقما أنيقا للغـايـة ووضعت أطنـانـا من مستحضرات التجميل على وجهى وذهبت إلى الجامعة فوجدت الجميع يلبسون الجينـز والـ«تى شيرت» وينظـرون إلىّ فى دهشة وسخـرية متسائلين: ما هى المناسبة؟ فلما تساءلت أنــا أيضا أى مناسبة؟ قالوا لى: كل هذه «الانتكة والحنتفة يانفرتيتــى»، هذه جامعة وليس عرضا لــلأزياء، خجلت ومن يـومهـا تعلمت البساطـة، البســاطة والجينــز

والـ«تى شيرت» والكوتشى، الزى الشعبى الأمريكى.

فى نهاية الحفل طلبوا منى أن ألقى خطبة أتحدث فيها عن أكثر الأشياء التى أثارت دهشتى فى أمريكا أرض اللبن والعسل، قلت لنفسى: أرض اللبن والعسل والدم لكن خلى الطابق مستور يابنت ولا داعى لفتح سيرة الاغتصاب والانتحار والقتل.. وخلينا فى الإنسانيات.

تذكرت الخطبة العصماء التى أعددتها عن الشرق المحافظ للسيد رئيس القسم فى الطائرة قبل أن أصل إلى أمريكا، بالطبع تراجعت واعترفت لهم أننى فى حيرة من أمرى، هذه أرض المتناقضات، فى الجامعة الأستاذ يحترم الطالب، والطالب يحترم الأستاذ لكن داخل إطار سلوكيات مختلفة، اعترفت أننى صدمت وذهلت حين وجدت الطلبة ينادون الأساتذة بالأسماء المجردة.. معايير الاحترام فى بلدى تحتم علينا استخدام ألقاب الأستاذ والدكتور وحضرتك... وسيادتك.. وسعادتك.. ومعاليك.

وحين حاولت ترجمة هذه الكلمات إلى الإنجليزية ترجمة حرفية تحولت إلى عبارات كوميدية تثير الضحك والعجب وأنا فى حيرة، هل الاحترام لفظ أم ممارسة سلوك؟.

قلت لهم إننى اندهشت حين وجدت السيد رئيس القسم يغسل الصحون فى بيته، ويعد لى القهوة بيده فى المكتب، وحين أبديت له

دهشتى قائلة: ولماذا لاتترك هـذه المهمة للسكرتيرة؟!... ده أنت رئيس قسم قد الدنيـا، فقال لى: السكرتيرة لديها مهـام أهم من القهوة وهى كتابة الجداول وإعداد خطابات الميزانية ، نحن نؤمن بمقولة:

Help Your Self

انـدهشت حين وجـدت الطلبة يستلقـون فى استرخاء على أرض الفصل الدراسى يحتسـون القهوة والكوكا كـولا ويمضـغون اللبان، ويناقشون الأستاذ فى جدية صارمة فى موضوع التفكيكية والبنيوية!

انـدهشت واحترت، هل هذه بسـاطة أم استهتـار؟.. هل الاحترام سلوك ظاهرى أم ممارسة ضميرية؟ هل الالتزام مبدأ أم واجب؟

ودفعت مهر الشيفروليه

وانتقلت من الـريف إلى المدينـة... إلى البندر الأمريكـى، العاصمة «واشنطن» دى سى «أو اختصار كلمة مقاطعـة كولومبيا» لأن هناك ولايـة واشنطن فى الغـرب الأمـريكى وعـاصمتهـا «سيـاتل».. أمـا العاصمـة، فهى المدينة الـوحيدة فى أمـريكا التى لا تنتمـى إلى ولاية بصفتها العاصمة.. على سن ورمح!

وتقع واشنطن دى سى بين ولايـة فيرجينيـا وولاية ميريـلانـد، حيث تعتبر تلك منطقة الضواحى... وقـد التحقت بالعمل فى واشنطن وبالدراسة فى جامعة جورج واشنطن، أما محل الإقامة فكان فى ولاية فيرجينيا، يعنـى الانتقال يـوميا على الطـريق السريع لمدة ساعـة فى الـذهاب وسـاعة فى الإيـاب. وعلى بابـا بعد الضنـا.. لابس حريـر فى

حــرير.. بعــد البطاطــس المسلوقــة والسرير فى الــدولاب والسير على الأقــدام ستــة أميال... حصلت على وظيفــة ميرى. مــذيعــة فى القسم العربى بإذاعــة صوت أمريكا.. قلت لهم: أنــا عندى خبرة وعملت من قبل مذيعة فى بلدى... قــالوا: آسفين لابد من الــ«Test» «الاختبار».. الامتحان .. وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان وربنا كرمنى، ونجحت وتم تعيينى على درجة وأصبحت مــوظفة ميرى وبمــرتب شهرى!! يعنى أمان وضمان... وتقسيط!

وعلى بــابا بعــد الضنــا يركب سيــارة أمــريكية والسيــارة ليست رفاهية أمريكية، حيث أن المساحــات شاسعة والمسافات ممتدة، وبين البيت والبقال ٨ أميال على الأقل، ومعظم النــاس يسكنون الضواحى وهناك شوارع بأكملها فى واشنطن تصبــح خاوية لاتجد فيها صريخ ابن يومين بعد السادسة مساء حيث لا يوجد بها سوى أبراج المكاتب وإذا وجدت عمارات سكنية أو منازل فهى قليلة. ويسكن الناس عادة فى الضواحى، فى بيــوت منفصلة أنيقة بحدائق وحمامــات سباحة، أو يسكنون فى ناطحات سحاب وعمارات شاهقة ملحق بكل عمارة أنيقة ناد للرياضـــة وحمام سباحة وملعب للتنس.. وقد اخترت أن أسكن فى الضـــواحى بالطبع مثل النــاس «الشيك» المحترمين، ومن ثم أصبحت السيارة ضرورة حتميــة، لأن أقرب محطة للأتــوبيس تقع على بعد ٣

كيلـومترات من منزلى الكـائن فى قلب غابـة جميلـة مع مجموعـة من البيوت المماثلة وكلها نسخة طبق الأصل من بعضها

والتقسيط ممكن مادامت هناك وظيفة.

لكن لابد من المقدم... مقـدم السيارة، مهر العروسـة الشيفروليه ولما كنت لا أملك «شروى نقير» ومفلسـة تمامـا، صعبت على زميلى المصرى المهـاجر منـذ خمسة وعشرين عـامـا... وعلى الرغم من أنـه تأمرك تمام التمام، وأصبح أمـريكانى، إلا أن عيونه مـازالت سوداء وشعره أجعد ولم يفقـد شهامة وأخلاق وطيبـة ابن البلد... ودعونى أتوقف أمام هذا التعبير الشائع الذى يمر علينا مر الكرام تعبير... «ابن البلد» إنـه تعبير بليغ عن الأصالة والـرجولة والعطـاء... قرر زميلى الأستاذ «إبـراهيم غباشـى» أن يقرضـنى مقـدم السيارة، على أن أرد الدين على دفعات بالتقسيط من مرتبى.

وافقت على مضض وأنـا فى نصف هـدومى من الكسـوف، لكن الأستاذ غبـاشى الطيب ابن الحلال ابن بلدى صمم على هـذا القرض الحسن «وبدون فوائد».

نزلنـا نتسوق.. نعمل شـوبنج Shopping .. شوبنـج سيارات. دخلنا أنا والأستـاذ غباشى معرض سيارات أنيقـا، واستقبلنا البائع استقبالا حافـلا ولا استقبال الأميرة ديانا فى زمـانها، سألت الأستاذ

غباشي: هو أنت تعرفه؟ فرد ضاحكا: بالطبع لا . لكن مادام هو بائعا وأنت مشترية فلابد أن تعاملى معـاملة الأميرات، قدم لنا البائع القهوة والشاى وشعـرت بالأهمية والحيثيـة لأننى «مشـترية هـانم» وأكدت للبائع أننى حفيدة ملكات وملوك وحدثتـه عن جدى «خوفو» وجدتى «حتشبسوت» وبنت عمى «الملكة نفـرتيتى». سـألنى السؤال التقليدى الذى يسأله كل أمريكى لحظة أن يعرف أنى مصرية.

ـ شفت الهرم؟ شكله إيه؟

كنت أبتسم كل مرة وأقول لهم أننى عشت سنـوات عمرى كلها ف الهرم أفتح نافذتى كل صباح على هذا المشهـد الرائع المحفور فى خلايا جسمى، الـــذى يسرى مع كـــرات دمى، كنت أحكى لهم عن الليـــالى القمريـــة التى كنت أذهب فيهـا مع والدى الغالى للجلـوس تحت سفح الهرم أتأمل أحجاره العملاقة وأغوص داخل كل حجر أتمرغ فى سبعة آلاف سنة هى عمرى الحقيقى.

كـانت كلماتى الصادقـة تذهل المواطن الأمـريكى الذى لايعـرف شعـور الانتماء الحقيقى إلى حجـر، التـاريخ العـريق يسرى فى قـدم المواطن المصرى فى كل خطوة على أرض مصر، هناك تيار خفى ساحر اسمه الانتماء إلى أرض وتـاريخ وهذا مـالايعرفـه المواطن الأمريكى الذى احتفل بمرور مائتى سنة على عمـر أمريكا، وكل مواطن أمريكى

يبحث عن جذور له فى قارة أخرى وفى بلد آخر وفى زمن آخر.

عرض علينا البائع أشكالا وألوانا من السيارات وقدم لنا مفتاح سيارة أعجبتنى وقال:

ـ خذى لك لفة، جربى السيارة «وكأننى سأجرب حذاء» عدنا إلى المعرض وملأنا الاستمارة «فاكرين التليفون» الاسم والعنوان والوظيفة واسم الضامن «الاستاذ غباشى الله يعمر بيته وحديقته الأمريكية» ودفعنا المهر «أقصد المقدم» واتفقنا على القسط الشهرى «النفقة» وإذا بالبائع يعطينى المفتاح مرة أخرى:

ـ تفضلى سيارتك الشيفروليه الجديدة لنج على الزيرو!! شيلى. الاستلام فورا والدفع على أقل من مهلى، ولما كان الاستاذ غباشى يقود سيارته وأنا لا أملك رخصة قيادة أمريكية وجدت نفسى أواجه تلك المعضلة.. أصبحت أملك سيارة لكنى لا أستطيع قيادتها!!.

اتصلنا بزميل ثالث جاء على الفور واحتفلنا باستلام السيارة الجديدة ووضعناها أمام باب المنزل.

فى اليوم التالى بدأت المذاكرة لدخول اختبار القيادة، الجانب النظرى هو حفظ قوانين المرور والعلامات والإشارات عن ظهر قلب نجحت فى الاختبار النظرى والحمد لله... وبقى الامتحان العملى ويوم الامتحان... يكرم المرء أو يهان، جلست إلى جوارى ضابطة الشرطة

المتحنة المتجهمة المتوجسة شرا من أمثالى ولم أكد أعتدل فى جلستى على مقعد القيادة وقبل أن أدير مفتاح المحرك، شخطت فىّ الضابطة المفترية وقالت بحسم:

-راسبة.

هرولت خلفها راكضة.

- فيه إيه ياكابتن.. راسبة... ياللمصيبة.. لماذا ياكابتن؟!

ده أنا طول عمرى الأولى على الفصل ولم أعرف الرسوب ولا السقوط ولا كل هذه المهانة.

أعطتنى الضابطة المفترية ضهرها ومضت فى لامبالاة.

بكيت... وكانت كل تفسيراتى تآمرية وشعرت بالاضطهاد والقهر وقلت للأستاذ غباشى: الست دى عنصرية... تكره الأجانب.

ضحك الأستاذ غباشى قائلا:

- أمريكا بلد كلها أجانب فى أجانب.. هل ياترى قمت بربط الحزام؟ أسقط فى يدى... هل يمكن أن أرسب فى اختبار القيادة لهذا السبب التافه؟!!

قهقه الأستاذ غباشى بصوت عال وقال:

- تافه.. هل تعرفين أن هناك غرامة فادحة على كل من لايربط حزام الأمان.. السائق.. والشخص الذى يجلس بجواره... والقانون

يحتم على ربط الأطفال فى الكرسى الخلفى وممنوع منعا باتا أن يجلس الطفل فى الكرسى الأمامى.

وللمرة الثانية بنجاح كبير.. رسبت..!

على الرغم من أننى تحزمت بالحزام الأسود وحرصت على الابتسام فى أدب جم للضابط المتجهم الذى قلب شفتيه فى امتعاض وأنا أقود السيارة وحين عدنا أدراجنا قلت له:

- إيه رأيك ياكابتن إن شاء الله خير ويكتب لنا النجاح على يدك يا ابن حواء وآدم.

- راسبة! إنك لم تتوقفى تماما أمام كلمة Stop أو «قف».

- سألته :

- «قف» لمن؟.. ولا يوجد صريخ ابن يومين فى الشارع؟

قال لى:

- ومن يدريك أن تندفع إليك سيارة فجأة من أى شارع جانبى، راسبة؟

قضيت الليلة فى نحيب وعويل، وتعقدت من القيادة على الطريقة الأمريكية... لكن لا مفر... إن كنت قد استأجرت «فيكى» للكتابة على الآلة الكاتبة إلا أن استئجار سائق فى هذه البلاد مع إمكانياتى المادية من سابع المستحيلات... لابد أن يكون الوالد مليونيرا و«بارم ديله»

«وحتى هـؤلاء يعملون جـرسـونـات» .. آه يابلـد الاعتماد على الذات وHelp Your Self

للمـرة الثـالثة بنجـاح كبير... نجحت.. بعـد أن سرت على الصراط المستقيم والتـزمت بقواعـد المرور الأمريكيـة «حرفيـا»! وسوق على مهلك سوق.

كانت أواصر الصداقـة قد توطدت بيني وبين فيكتـوريا والأستاذ الكلب «بنتلى» وولده «ممكن»، ولم نعد نستطيع الاستغناء عن بعضنا البعض: ومن ثم وقبل مغـادرتى ولاية «كنتاكـى» فى الغرب الأوسط «بلاد الفلاحين الجوانيـة»، كنت قد اقنعت ثلاثا من صـديقاتى وعلى راسـهم «فيكى» بالهجرة معى مـن الريف الهادىء المتخلف إلى البندر المتقدم الذى يعج بـالحياة والحركة، وما صـدقت البنات لأن هذه هـى مرحلة كل فتاه أمريكية ريفية تبحث عن المستقبل والنجاح والشهرة. انتقلن معى إلى البندر والتحقن جميعا بقسم الدرامـا بجامعة «جورج واشنطن» فى العاصمة الأمريكية.

لا يخفى عليكم بـالطبع أهـداف الخفية فى الإصرار على مصـاحبـة فيكى ألا وهو استعبادها واستغلالها فى الاستمرار فى الكتابة على الآلة الكاتبة، لكن هذه المرة كـان علىّ الانضمام لجحافل الشباب الأمريكى الذى يعمل بجد وتعب كى يـوفر نفقات الدراسـة من عرق جبينه فلم

يعـد عنـدى لامنحـة ولا «يحزنـون». وكـان على أن أدفع «دم قلبى» دولارات مصاريف دراسة جامعية.

وبين إيجار البيت وقسط السيـارة ومصاريـف الجامعة ومـرتب «فيكى» ضاع المرتب وعدت إلى حياة البطاطس المسلوقة، وإن كنت قد أدخلت عليهـا بعض التعـديـلات وتعلمت طريقـة شـواء البطـاطس بقشرتها فى الفـرن وهـو مـا يطلقون عليـه «البطـاطس بـالجاكتـه» وأحشوها بالبصل المفروك بـالملح والفلفل الأسود مع قليل من الزبد فتاتى بنفس تاثير الفول من ملء البطون وتنبلة العقول.

دعانا الأستاذ «جيمس» أستـاذ مادة الديكور على الغداء فى الخلاء فى عطلة نهاية الأسبوع.. وقال فى حيثيـات الدعوة أن « أرنست» طباخ ماهـر «ماحصلش فى بـر واشنطن وضـواحيهـا»، وقال إن «أرنست» سيقوم بعمل«الباربكيو» «شواء اللحم على الفحم».

تعجبت، أنا أعلـم أن مرتبات أسـاتذة الجامعـة ضعيفة وكحيـانة للغاية فمن أين له بأجر الطباخ!!؟

حتى لو كان والده مليونيراً على ضوء فكرة استقلال الابن عن أهله فهـو أستـاذ جامعـة «على قـده» وعـادة أسـاتذة الجامعـة يحبـون ويفضلون ويؤمنون «بعيشة التقشف».

طبعاً نضـع تحت كلمـة «على قده» و«التقشف» ثلاثـة خطوط، لأن

مفهوم التقشف الأمريكى هو أن يكون لديك بيت وسيارة حتى لو كان بالتقسيط.

التقى فوج السيارات المحملة بالطلبة وأعضاء هيئة التدريس وأهلهم وأطفالهم واتجهنا إلى الخلاء وأصبح عندى الآن سيارة ولى وضع اجتماعى. كان الغداء فى «الهو» فى غابة رائعة من الأشجار الباسقة المتعانقة ولم تكن « الدنيا ربيع والجو بديع » على حد قول «صلاح جاهين». كان هذا الموسم هو بداية الخريف، أجمل أوقات السنة فى ولاية فيرجينيا. الطبيعة البديعة فى أجمل صورها وسبحان الله، لم أكن أعلم أن الخريف قد يكون بكل هذا الجمال، مفهوم الخريف عندى هو الرحيل والحزن والخطوة الأولى على طريق الشيخوخة لكن خريف فيرجينيا يعتبر من أجمل أيام السنة.

سبحان الله، أوراق الشجر ترسم لوحة فنية خيالية بديعة.. أوراق الشجر خضراء.. وصفراء.. وبنية.. وحمراء.. ووردية.. وبنفسجية.. وبرتقالية.. والأرض مفروشة ببساط من الأوراق المتساقطة الذابلة التى جعلتنى أشعر أنى أخطو داخل لوحة من لوحات «فان جوخ» أو «مونيه».

اختلطت رائحة الشواء برائحة الأعشاب النضرة وكان من أول واجباتى المشاركة فى مهام نصب الخيام وهى عملية تتطلب حفر ودق

وشيل وحط.. ومجهود عضلى عنيف. وأنا يا أخواتى من بلد الواد «بليه» وعم «رزق السايس» و«صبحى الفراش» وهذه بلد لا تعرف تلك المهن الغربية، قلت للأستاذ «جيمس»: نحن نشترى حوائجنا بالسلة المدلاة من الشرفة.. أنا يا أخواتى من بلاد الابن المدلل «وكوباية ميه يابت يا فتحية وحضرى العشاء ياماما».

لا ماما ولا بابا.. وهذه الفسحة الخلوية التى يطلقون عليها Camping أو إقامة معسكر، وقد انخلع ذراعى أثناء نصب مقصوفة الرقبة الخيمة وادعيت أننى لم أعد أستطيع العمل ولا حتى حمل زمزميات الماء والشاى والقهوة.. جلسنا نأكل الهامبورجر واللحم المشوى والبطاطس الشيبسى، ونغنى .. سألت:

ـ فين الفسحة بقى ياجماعة، ماكنا أكلنا الهامبورجر فى بيتنا.. كل هذا المشوار حتى نأكل هامبورجر.!!؟

..قالوا لى:

هذه هى الفسحة.. «واتعشى واتمشى» فى الغابة.

واكتشفت فيما بعد....

أن «أرنست» ليس الطباخ.. بالطبع لا.. «أرنست» هو «المدام» حيث أن الدكتور «جيمس» يقيم مع «أرنست» منذ خمس عشرة سنة على الحلوه والمرة «هما متعاهدين»!

تذكرت قصة الدور الثالث والعشرين واقشعر بدنى.. وأعوذ بالله

من غضب اللـه... ورايا ورايـا.. والأستاذ «جيمس» يعلن الموضــوع بصراحة. والموضــوع عادى بـالنسبة للجميع.. إلا أنـا الوحيـدة التى وقف الموضرع فى حلقى.. أدركت أننى لابد أن أتعـامل بديبلومـاسية سويسريـة وحياد غير إيجابى واخـرس وأجعل شعارى «وأنـا مالى» فهذه هى الوسيلة الوحيـدة من أجل البقاء عاقلة والإبقاء على عقليتى الشرقية فى مجابهة منطق العقلية الغربية!

دعـانى «أرنست» إلى فسحة والسير على الأقـدام فى الغـابة وكـان الجو بـارداً وقـد اقشعـر بـدنى لأسبـاب عـديـدة.. نشفت من البرد والأستاذ «أرنســت» يشير إلى أنواع الطيور المختلفـة حيث أن هــواية مراقبـة الطيور هــواية ارستقــراطية وبعـد أن كدت أتجمـد من البرد شعـرت أننى لم أعـد قادرة على السير «كسحنى أرنست» سـاعـة فى مراقبة «البوم» و «العصافير» وأنواع «العندليب» المختلفة، وظل يشير هذا «بلبل قــادم من غابات الأمازون» وهذا «كـروان حضر من ربوع اسكتلندا» وهذه «أم قويق من المكسيـك» وظل يدون ويدون فى مفكرة فى يده، سألته مـاذا تدون يا«أرنست» قال: أنـواع وعدد الطيور، قلت له: لماذا يـا أرنست؟ قال: حتى أعرف كم بلبـلا شاهدتـه فى حياتى؟!. لعنت المعسكرات وسنينها، أشعلوا النار للتدفئة بعد أن كنت قد دخلت فى مرحلة «التثلج» سألت على مضض:

ـ مش حنروح بقى يا جماعة الخير؟!

ــ لا يا نفرتيتى.. هذا معسكر.. سوف نبيت فى الخلاء والعراء والهواء الطلق.. إن الهواء منعش للغاية.

وأسقط فى يدى «اتكلفت» فى شنطة النوم وهى عبارة عن لحاف سميك على شكل شوال. لم يمنع اللحاف رطوبة الأرض من اختراق عظامى، ولم أستطع النوم داخل الخيمة المتر فى متر ولمبة جاز حديثة بالبطارية تونس وحدتى.. وأصوات صراصير الليل ونعيق البوم تعزف من حولى سيمفونية الرعب، وقد تكون هناك سحلية تائهة أو ثعبان لطيف خرج للتسلية على أمثالى، والجميع فى حالة انبساط بحياة المعسكرات وأنا أتساءل: ماهى النظرية يا جماعة؟ فين الفسحة، وماله التليفزيون والمدفأة الكهربائية ودفء السرير الوثير.. اعتبرونى برجوازية مدللة لاأعرف قيمة الطبيعة الصامتة و«مش وش نعمة»!

وحتى تصبح النزهة الخلوية ذكرى لا تنسى تكلمت الطبيعة وخرجت عن صمتها وعزفت لنا السيمفونية الشهيرة «سيمفونية البرق والرعد والمطر» وتكومنا داخل الخيم نرتعد وتذكرت ساعتها أن زحام أى أتوبيس فى القاهرة فى هذه اللحظة هو الجنة ونعيمها! وتوبة من هذه النوبة الخلوية الهبابية..

وجهة نظر!

خبر مـزعج.. مـرعب.. مأسـاة عاطفيـة.. تـراجيـديا إنسـانيـة. «أرنست» مريض.. عنده «الإيدز»!

يا واقعة سوداء يـا أولاد.. ساد الحزن والغم والنكد أرجاء القسم واغرورقت العيون بالدموع كلما تذكرنا فسحة الخلاء وساندوتشات الهامبرجر اللـذيذة من يد المأسـوف على شبابه، كـان الجميع يبكون ويولولون حزناً وأسفاً..

Oh.. My God.. Oh My God.. «يا ربى.. يا ربى» .. وأنا ألطم الخدود رعبـا وذعرا فلقـد أكلت سانـدوتش الهامبرجر صنعـة ايدين الأستاذ «أرنست» بسلامته ولم أكن أعرف.

يقـولـون إن العدوى لاتنتقل إلا بين الجماعـة المرحين ونظـريتى السويسرية تقول «وإحنا مالنـا» وهذه هى آخرة المرح والفرح الشاذ، قلت لفيكى:

ـــ يا فيكتـوريا.. يستـاهلوا كل اللى يجرى لهم.. عنـدنا فى البـلاد يقـولون: « الـذى يحمل قـربة مثقـوبة تنقط فـوق رأسـه وتغرقـه» يقولون: إن الإيدز ينتقل عن طريق الحقن الملوثة.. «وإحنا مالنا»! لكن كيف لى أن أضمن أن ارنست لم يخدش أصبعه بـالسكين.. «يا واقعة سوداء».. ربما جرح أثناء عملية الشواء «ينشوى فى جهنم».

ظلت هـلاوس الرعب الـرهيبـة تطاردنى بقلقى الشرقى الـذى لا

يعترف بكلام العلماء وخاصــة أننى أخشى من يعطس معى فى حجرة واحدة.. فمابالكم«أرنست » عنده إيدز وكان يومها يعطس كثيراً.. «يا غلبى».

لم أهدأ ولم يطمئن لى بـال إلا حين أكد لى طبيب فى مستشفى الحى أن الإيدز« بره وبعيـد» لا يمكن أن ينتقل بالرذاذ ولا بـالمصافحة ولا بالمناديل الورقية.

«أرنست» مريض وعرفنا.

مـاذا عن الدكتـور «جيمس» الـذى يحاضرنى يـوميا.. بصراحـة كرهت الجامعة والعيشة لكنى رأيت فى عيون البعض تعاطفاً وإنسانية وفى عيون البعض الآخـر «مثلى» القلق والرعب والخوف مـن الأستاذ «احتمال عدوى».

رحمنا الـدكتور «جيمس» لأنـه طلب إجازة بدون مـرتب لرعـاية «أرنست» الذى تـدهورت حـالته بسرعـه رهيبة ونقل إلى المستشفى.

ومات «أرنست».

لكن هل يمـوت مثلـه مثل الناس؟!.. طبعـا لا! لازم يعمل «شـاذ» برضه»!

طلب المرحوم «أرنست» أن تحرق جثته وأن ينثـر الرماد فى بحيرة «البوتـوميك» الجميلة وقد علـق الجميع أنها فكرة رومانسيـة رائعة،

وكنت قد شاهدت جنازات خواجاتي كثيرة من قبل في الأفلام الأجنبية، ومن ثم «فإن كنت في واشنطن فافعل كما يفعل «الواشنطيون» تقمصت شخصية «المعزيات» الأمريكيات ووضعت قبعة سوداء بفيونكة قطيفة وستارة من التل الأنيق تتدلى على وجهي ولبست الأسود وذهبت في ملابس الحداد الخواجاتي إلى جنازة «أرنست».

طبعا لايوجد لطم ولاندب ولا أقوال ماثورة مثل «ماكانش يومك يا أرنست» لكنهم كانوا جميعا «متشحتفين»، وحزب المرحين كله موجود يقدم فروض العزاء والعدد في الليمون والغريب أن كل مرح من هؤلاء عنده شنب يقف عليه الصقر.

ووقف الدكتور جيمس يلقي خطبة يعدد فيها مآثر المرحوم ومنها بالطبع ساندوتشات الهامبرجر وكان الجميع متأنقين في أبهى الحلل «تقولش رايحين فرح».. سألت «فيكي»:

ـ لماذا كل هذه الأناقة؟!

قالت لي:

ـ إنه احترام الموت..

حتى المرحوم شخصيا يلبسونه أبهى حلة ويضعون له المساحيق والروج وأحمر الخدود حتى لاتبدو عليه زرقة الموت، حيث لابد من

وداعه فى أجمل صورة، وهناك حانـوتى شغلته «ماكيير نوتى» يقوم بتصفيف شعر وعمل ماكياج الميت.

يمر الجميع حـول النعش لإلقاء نظـرة الوداع على المرحـوم وترك وردة ، بعدها ينقل النعش فى العادة للدفن حيث يوارى الثرى

لكن لا.. الأستاذ أرنست طلب الحرق. قال:

«أنا أستاهل الحرق وليس أقل من الحرق». هو حـر و«إحنا مالنا» دخل النعش أمامنـا على قضيب كهربائى كأنه علبـة سردين أو صاج سمك مشـوى ودوغـرى إلى المحرقـة الكهـربـائية وخـرج الأستـاذ «أرنست» من الجهة الأخـرى محروق هباب داخل قنينة زرقـاء أنيقة ومحكمة الإغلاق.

اتجه مـوكب السيـارات السـوداء الليمـوزين الأنيقـة الخاصـة بالجنـازة إلى البحيرة لإلقاء رفات الـذرات الارنستية فى الماء والهواء. كـان المرحـوم يـريـد أن يطير مثل العصـافير فـوق الأشجـار وبين السحاب وفى قلـب الأمواج وفى قطرات المطـر.. يصبح ذرة فى الهواء.. يدخل فى الأكسجين وثـانى أكسيد الكربـون وفى الشهيق وفى الزفير.. نظرية برضـه!

أصـابتنى حـالـة غثيان وهـم يلقون بـرفـات المرحـوم فى الهواء ويهتفون:

ـ وداعا.. وداعا.. مع السلامة يا «أرنى».

وصدى الصوت يتردد فى الآفاق وقد انحشرت فى حلقى ذرات ترابية وأنا ألطم ليس على «أرنى» بالطبع بل على حظى العاثر الذى جعل «أرنست» ينحشر فى حلقى. نظرت إلى فيكى وقد ركبنى ستون عفريتا.

ـ يافيكتوريا.. أنا لا أريد أن أستنشق «أرنى» يا أختى.

هيا بنا وكفى.

شجبت «فيكى» واستنكرت قرار مقاطعة موكب استنشاق رفات «أرنست» حتى تظل ذكراه فى نفوسنا وفى أنوفنا أبد الآبدين. صرخت لاياعزيزتى رفات إيدن.. يا حلاوة.. هذا هو ماينقصنى فى هذا البلد!!.

أصرت «فيكى» على ذهابنا إلى حفلة الغذاء على روح المرحوم وهذه من طقوس العزاء أيضا فبعد وداع المأسوف على شبابه الفقيد يذهب الجميع لحفل أكل وشرب وانبساط على روح المرحوم أى والله!.. هكذا.. هذه هى فلسفة التعامل مع الكارثة الصدمة!.. الحزن.. لكن الحياة لابد أن تستمر.

وكلما انبسط المعزون آخر انبساط وفرفشوا آخر فرفشة كلما كانت التحية مخلصة لروح المرحوم الذى أصر أن تكون حفلة الوداع راقصة، والمرحوم كان مرحا يحب المرح!!

وراح فى ستين حريقة!

قلت لفيكى: يا أختى قلبكم الحديد المثلج فى فريزر المشاعر.. حد له نفس يتسمم.. المفروض إننا فى حالة حداد وحزن.. فى البلد نبكى ونلطم الخدود ونصرخ ونبدى الحزن قولا وفعلا، عندنا تراث اللطم الشعبى وهو تنفيس سيكولوجى عن الحزن العميق ونحن نرتدى ملابس الحداد السوداء سنة أو أربعين يوما وهذا أضعف الإيمان. أما أنتم فكل واحد منكم قد أتى إلى الجنازة على سنجة عشرة لمدة يوم واحد فقط وبعدها العودة إلى الـ«تى شيرت» والجينز.. تتأنقون للجنازات.. وتتبسطون فى الحفلات وفى الحياة اليومية وكل حاجة عندكم بالمقلوب، ولكم شهية للأكل والشرب على روح المرحوم.. نحن نشرب قهوة سادة لأن السكر متعة وطعم لذيذ.. يعنى نحن يافيكى نحرم أنفسنا من ملعقة سكر احتراما لذكرى الفقيد.. نحن نبكى فى العزاء ونترحم ونقرأ القرآن ونحول جلسة العزاء إلى جلسة علاجية جماعية يبكى فيها كل منا همومه ويترحم فيها كل منا على موتاه.

وبصراحة يافيكى أنا كنت ثورية انتقادية أعترض على تقاليدنا الشرقية فى العزاء. لكنى أتعجب.. هل نحن على حق أم أنتم؟ لقد دفنتم.. آسفة.. لقد نثرتم رفات الرجل منذ دقائق وما شاء الله شهيتكم مفتوحة للأكل والشرب والنميمة وكل معزى والتانى يدخل

وفى يـده كعكـة أو دستـة جـاتـوه، هل هـذا معـزى أم عيـد ميـلاد؟ واعتبرونى.. رجعيـة.. شرقية.. متخلفـة.. واللى مات مـات.. والحياة تستمر.

شرحت لفيكى أننا ورثنـا فكرة إقامـة الأربعين منذ عهد الفـراعنة لأننا شعب نعشق فكرة الولاء ونحترم الذكرى العطرة، قالت «فيكى»:

ـ كفى رومانسية فلتكونى عملية.. واقعية.. متحضرة Practical

هل يمكن خلع إنسان عزيز فى لحظات من القلب والوجدان؟

هل يمكن اقتلاع مشاعر الحب والوفـاء والإخلاص اقتلاعا جذريا فى أربع وعشرين ساعة؟

هل يجب أن ننسى المسافر والمهاجر والميت ونقول الحياة تستمر؟

أنا لا أستطيع أن أتخلى عن ذكـريات الطفولة الجميلـة وضـحكاتى المجلجلة وأنا فى الثامنة من العمر.. ولهوى البرىء مع أخى الغالى الذى مات فى زهـرة شبابـه والتهمه مرض السرطـان الرهيب.. أنـا مازلت أتذكره فى كل لحظـة فرح وأناجية وأناديه وافتقـده فى لحظات الشدة وأدعو له بالرحمة.. أنا لن أنسى نكات أبى.. وأوامر أمى.. ودموعهما فى فرحى ومرضى لمجرد أنهم رحلوا عن الحياة.. أنا يافيكى لا أعيش فى الماضى كما تقولين.. لكنى أحتفظ فى خزانـة القلب بذكرى أحبائى.. أستمـد منها القـوة والسعادة.. أتعلم منهـا طعم الشـوق والوحشـة

أتعلم.. أول دروس الموت.. وهو الولاء لذكرى عزيز.

قالت لى فيكى:

ـ إنك تتمسكين بالماضى.. والماضـــى سيعرقل حركتك فى الحاضر وخطواتك فى المستقبل.

ولم تكتف باعتبـارى شرقية متخلفة.. بل قـالت إننى فى حالـة الـ «شرنك»Shrink .

«شرنك»؟

هذه كلمة باللغة الدارجة الأمريكية، دخلت قاموس الحياة اليومية وأصبحت متـداولة، لو بحثـت عنها فى القـاموس لوجـدت أنها تعنى «انكمش ـ تضاءل ـ صغر» لكنها أصبحت تعنى بقدرة قادر.. الطبيب النفسى».

ماهى العلاقة اللفظية، والتحليل الاجتماعى لتحويل فعل «انكمش» إلى دكتور أمراض عصبية ونفسية؟!.

وأنا لاأدرى من الذى ينكمش، الدكتور.. أم المريض؟ ربما قصدوا أن همومك ومصـائبك تنكمش وتتضـاءل على يد الـدكتـور «شرنك» و«شرنك» من أهم الظواهر الأمريكية المعاصرة.

والذهاب إلى الـ «شرنك» رحلة مقـدسة فى حياة المواطن الأمريكى. «الشرنك».. هو الحل والبديل للأم والأب والأسرة. «الشرنك» هو الحل

الأوحد. للمشاكل العاطفية والزوجية والأبوية والأخوية والعملية على جميع الأصعدة. والمواطن الأمريكى قد لا يتمكن من تدبير قوت يومه أو قسط امتلاك بيته، ومع ذلك يقول لك فى عنجهية:

عندى ثلاثة مواعيد أسبوعية مع طبيبى النفسى الـ «شرنك». والساعة بتسعين دولارا ، دولار ينطح دولارا، كل ما عليه أن يسأل والمريض يحكى ويفضفض بكل أسراره وأسرار أهله واللى خلفوه وأسرار الجيران كمان!

وعادة ما يضع «الشرنك» منبها وبعد مرور ستين دقيقة بالتمام والكمال يقاطع المريض فى أى جملة مفيدة قائلاً «الجلسة انتهت.. إلى اللقاء.. مع تسعين دولاراً أخرى».

«الشرنك» فى العادة.. صاحب ملامح حجرية ونظرات فولاذية وهو فى حالة اهتمام منفعل وتأمل دائم لكلمات المريض وكأنه يدلى له بسر القنبلة النووية. وهو دكتور فى أدب طرد المرضى بالذوق أو بالبرود.. أو بالغرور ولابد له أن يذل المريض ما دام فى حاجة إليه كانت «فيكى» تزور الطبيب النفسى بانتظام.. لكن ليس من أجل حل مشاكلها النفسية والعاطفية.. بل من أجل كيفية التعامل مع «ممكن» الذى أصابته هو بدوره نوبة اكتئاب نفسى بعد إجراء العملية الجراحية.

واكتشفت فيما بعد...

أن هناك نسبة متزايدة فى عدد الأطباء النفسيين «الشرنكات» الذين قد يسيئون استخدام المهنة، وقد يقيمون علاقات مشينة مع المرضى الذين يمرون بلحظات ضعف ووهن نفسى، يعنى «جبتك يا عبد المعين تعيننى...».

تعجبت..!! هذه هى بلاد الحرية والديمقراطية والاباحية، هذا هو الغرب المتحضر الذى قرأت عنه فى الكتب. جريمة.. واغتصاب وقتل.. وانتحار.. وشذوذ.. وحتى «الشرنك» «جه يكحلها عماها» يا فيكى يا أختى.

قالت فيكى:

ـ لقد تحولنا إلى أمة من المشاهدين المتفجرين السلبيين نشاهد الجريمة بأنواعها ليل نهار على الشاشة.. فى السينما.. وفى التليفزيون. هناك الجريمة العنيفة المرعبة، وهناك جريمة من نوع آخر وهى جريمة الدم البارد بدون سبب وبدون دافع وبدون مرض نفسى. أصبح هناك شىء اسمه القنص البشرى حيث يرتكب المجرم الجريمة باصطياد أى ضحية بطريقة عشوائية دون سبب، الفيلم الناجح اليوم هو فيلم المغامرات المثير.. فيلم الأكشن.. ونجاح الفيلم يقاس بعدد القتلى والجثث المتفجرة.. والفيلم الذى يحقق نجاحا منقطع النظير هو

الذى يعرض ألف طـريقة وطريقة للقتل، البطل الهمام هـو الذى يقتل بالمسدس والبندقية والرشـاشات والقنابل ويستخدم أساليب الحرق والشنق والخنق والأمواس والخناجـر والمطاوى والحبال والأسلاك وقـد يلقى بضحيتـه من طـائرة أو بـاخـرة أو من الـدور التـاسع والتسعين.. والعبقرى هو الـذى يخترع وسيلة حقيرة خطيرة للقتل.. وبدلاً من أن يسأل المشـاهد قبل دخـول الفيلم من الذى يقـوم بدور البطولة وما هو اسم البطل والبطلة يسأل:

هو فيه كام قتيل فى الفيلم؟!

ضحكت على هـذا الـزمان والمكـان.. فى أيـام هـوليوود الـذهبيـة الرومـانسية، كانـوا يحصون عدد القبـلات فى الأفلام ونحن فى مصر نحصى عـدد الضحكـات. حتى الـركب وهم يحصـون عـدد الجثث والأشلاء البشرية!

أمة المشاهـدين اكتسبت حصانة، مناعـة نفسية، تحيدت.. أصبح المشـاهد محايـداً أمام مشـاهـد العنف والجنس والاغتصاب فهـو لا يمارس الفعل لكنه يتابعه بسلبية وتنبلة.. هو يتلقى فى صمت ومن ثم يشعر بالإنجاز الزائف دون أن يحرك شعرة فى رأسه.

وتـرسخ فى العقل الباطـن للمتفرج أنـه لـو أطلق الرصـاص على زوجتـه لأنها لم تعد لـه العشاء فإن الـرصاص سيخترق رأسهـا ثم

يمسك بدماغها الذى ينزف دماً فيحطم به زجاج الشرفة ثم يلقيها من الدور الخمسين وفى نهاية الأمر ستنجو بقدرة سينمائية خادعة و«تقوم مثل الرهوان» تحضر له العشاء.

فقدت مشاعر الخوف وألفاظ البشاعة والوحشية معناها ومحتواها وتحولت إلى ممارسات سلبية يومية يمارسها المتفرج.. أصبحت أمة المشاهدين تبحث عن الإثارة المرضية وليست الإثارة المتعة. وفى النهاية يرتع فى المجتمع سفاحون من صنف السفاح الذى اغتصب وقتل عشرين امرأة وبقر بطونهن، والسفاح الذى كان يسجن ضحاياه من الرجال والأطفال ويسلخ الجثث ويأكل لحم الضحايا.. يعنى أكلة لحوم البشر مازالوا بخير لا يعيشون فى غابات أفريقيا والأمازون بل فى العواصم المتحضرة.. وسفاح ثالث خطف ثلاثا وعشرين طفلة واغتصب براءتهن.. وذبحهن واحدة بعد الأخرى.

والعجيب أن حكايات السفاحين تتحول إلى مادة لذيذة جذابة لأفلام مثيرة.. والمصيبة أن هذه الأفلام تحصل على جوائز الأوسكار مثل فيلم «صمت الحملان» عن سفاح آكل لحوم البشر الذى حقق إيرادات قياسية.. ومن ثم بل ومن الحتمى أن تذهب الأمة بحالها بأكملها إلى «الشرنك» ويزدهر ويترعرع دور وسلطة الطبيب النفسى.

فالشرنك هـو المرفأ من فراغ الوحـدة والوحشية، وملل الرفـاهية وقسـوة الواقع، وإيقـاع جرى الوحوش، والمنافسة الـلاهثة، والثقافة التليفزيـونية القشريـة السطحية، والأسرة الممـزقة المفتتـة المشتتة فى أنحاء القارة الأمريكية.

الحلم الأمريكي..

وأمريكا قارة بالفعل وليست مجرد بلد، فالساحل الشرقى يبعد عن الساحل الغربى مايزيد على أربعة آلاف كيلو والطائرة تقطع المسافة بين واشنطن وسان فرانسيسكو فى ثمانى ساعات والمواطن الأمريكى قد يعيش على الساحل الشرقى فى درجة حرارة تحت الصفر حيث تكسو الثلوج الجبال وفى نفس اليوم يكون المواطن على الساحل الغربى فى لوس أنجلوس يجلس على الشاطىء يستمتع بأشعة الشمس الدافئة، وفى نفس اليوم تكون درجة الحرارة فى صحراء أريزونا ونيفادا تشوى الجلود، وفى غابات مونتانا الباردة فى الشمال يرتدى الناس معاطف الفراء السميكة، الامتداد الجغرافى للقارة الأمريكية شرقا، وغربا، شمالا، وجنوبا، مع الاختلاف فى التركيبة

البيئيـة من جبال إلى وديـان إلى صحـراء، إلى غـابات، إلى شـواطىء، انعكس على الشخصيـة الأمريكيـة تناقضـات سلوكيـة كبيرة، ومن الصعب أن نصف سمات الشخصية الأمريكية، فالساحل الشرقى هو أرض الإنسان المحـافظ والمثقف والفنان، وتختلف شخصيـة مواطن يعيش فى نيـويـورك فى الشمال الشرقى حيث إيقـاع الحيـاة الـلاهث والضجيج والزحـام وجرى الوحوش والجريمـة والفنون المزدهرة والحريـة الشديـدة، يختلف هـذا المواطن عن مواطن يعيش فى «بـالم بيتش» فى جنوب الساحل الشرقى حيث الحياة الممتعـة الرحبة وإيقاع الحياة الهادىء، ويختلف الاثنان عن مـواطن من الساحل الغربى من لـوس انجلـوس أو سـان فرانسيسكـو حيث التلقـائيـة والانطـلاق والاباحية وهوليوود والطموح والشـذوذ. بالتأكيد هناك ارتباط بين المؤثرات الجغرافية على شخصيـة كل منهم. هذا إلى جانب الاختلاف الكبير فى الخلفيات الحضارية والثقافية والدينية للمواطن الأمريكى.

فالمواطن الذى هـو من أصل أوروبى يختلف عن المواطن الذى هو من أصل صينى أو مكسيكى أو لاتينى «من أمريكا اللاتينية». كما أن المواطن الأمريكى قد يعيش سبعين عـاما من عمره دون أن ينتقل من «تكساس» إلى «سيـاتل» لأن المسافة خمس سـاعات بالطـائرة وعدة أيام بـالسيارة ومازلت أتـذكر نظـرات الاحترام والتبجيل من أستاذ

مادة الدراما الأمريكى فى جامعة «لويفيل» فى ولاية «كنتاكى» لأننى قمت بزيارة «نيويورك» وشاهدت مسارح «برودواى» وأنا القادمة من بلاد الفراعنة وهو الأمريكى الذى تعدى الخمسين من عمره ولم تطأ قدماه مدينة «نيويورك» ومن ثم تجد كثيرا من الأمريكيين لايعرفون شيئا عن العالم الخارجى ويتصورون أن الحياة هى أمريكا وأن أمريكا هى الحياة.. وإذا سألت الواحد منهم ماهى عاصمة سوريا؟ أو فنلندا؟ قد لايعرف أصلا أن هناك بلدا تحمل هذا الاسم. والمثل الشعبى الأمريكى الذى يعبر عن هذا المنطق أيما تعبير هو المثل القائل:

Far From my bed

وهذا حين يريد التعبير أن القضية لاتهمه فيقول إنها بعيدة عن فراشه، ولاشك أن الذين قالوا أن الجغرافيا هى القضبان التى يسير عليها التاريخ والسياسة كانوا على صواب تام، فأمريكا على يمينها المحيط الأطلسى الذى كانت تعبره السفن فى عشرة أيام وعلى يسارها المحيط الهادى الذى كانت تعبره السفن فى أسبوعين ومن الطبيعى أن تصبح فكرة البلد والوطن والقارة كلها أفكار تحمل مضمونا مختلفا فى أمريكا عنها فى أى مكان آخر، فالوطن الأمريكى فى خيال الأمريكى ليس هو الوطن كما يفهمه المصرى أو الهندى، وقد يعيش المواطن

الأمريكى ويمـوت دون أن يرى إلا خمس ولايات أمريكيـة ولايعرف شيئا عن الخمس وأربعين ولايـة الباقية. ومن الطبيعى أن تفـرز هذه الجغـرافيا المتبـاينة أمـزجة مختلفـة وسلـوكيات متنـاقضة فهنـاك الشخصيـة الباردة فى جبـال «فـرمونت» فى الشمال الشرقى وهنـاك الشخصية المشتعلة فى جنـوب اريزونا ـ فى الجنـوب الغربى ، وهناك مجانين كاليفورنيا بالطبع.

فى المناطق الزراعية مثل ولاية «كنتاكى» و«انديانا» مازالت الأسرة متماسكة تحافـظ على التقاليـد العائليـة، أما فى المدن الكبرى المزدحمة مثل نيويـورك، ولوس انجلوس، وهيوستـون فنجد أن الأسرة مفتتة إلى حـد كبير وتبرز السلـوكيـات الفرديـة الأنـانيـة ويعيش الأطبـاء النفسـانيون فى رفاهية ورغد من العيش.

ويظل الإنسان الأمريكى يحلم «الحلم الأمريكى» والحلم الأمريكى The American dream من العبارات التاريخية المأثورة والأثيرة بالنسبـة لكل مواطن أمـريكى، فالمهاجـر يأتى إلى أمريكـا وفى جعبته الحلم الأمـريكى، ماهـو الحلم الأمـريكى؟.. هو الـرفـاهية والثروة والحرية والديمقـراطية والنجاح والطموح والصعـود وهو كل قصة نجاح. فـالحلم الأمريكى هـو أن تأتى من بلاد الفقـر والقهر والجهل خالى الوفاض وتكـد وتتعب وتعمل وتصبح مليونيرا من عرق جبينك

وليس عن طريق الوراثة أو الثروة المفاجئة. الحلم الأمريكى هو أن تصبح «سيناتور» فى الكونجرس أو رئيس الولايات المتحدة عن طريق الانتخابات الحرة وليس عن طريق الواسطة أو الرشوة.

الحلم الأمريكى نظرية فلسفية وسياسية واقتصادية واجتماعية.

استلم الآن.. وادفع غدًا!

جتنى حالة نفسية.. فقد تحولت إلى مخلوق استهلاكى ولم يعد مرتبى يغطى التزاماتى المادية مابين الرغبة فى الشراء لإرضاء نزعاتى الاستهلاكية المجنونة وضعفى أمام حملات التخفيضات الضخمة على مدار العام مما يجعل المستهلك يشعر بأنه سيفوته نصف عمره لو لم يحصل على تلك السلعة اللقطة ومن ثم وقعت فى فخ الشراء لمجرد الشراء وليس لحاجتى الحقيقية لهذه الأشياء. أثقلتنى الديون خاصة بعد أن حصلت على تلك البطاقة الشريرة؛ بطاقة الائتمان البلاستيكية التى تشترى بها ماتريد ثم تدفع بالتقسيط آخر الشهر وهذه النقود البلاستيكية لاتجعل المشترى يشعر بحجم المشتريات المتراكم وتسهل الرغبة الجامحة فى الشراء والتى لايحكمها عقل

ولامنطق، هذا إلى جانب مرتب «فيكى» ومصاريف علاج «ممكن» عند الطبيب النفسى، أصرت «فيكى» إزاء حالة الاكتئاب الفظيعة التى اعانى منها، أننى يجب أن أذهب إلى «الشرنك». لكن إمكانياتى لاتسمح بدفع التسعين ملطوش أخضر. سألت «فيكى»: وما العمل يافيكى أنا تعبانة نفسيا؟!، اقترحت فيكى أن أكتب خطابا أو أتصل تليفونيا بالشرنك المصرى بتاعى.. لأن أى شرنك أمريكى لن يفهم الأبعاد الحضارية، والعقد النفسية، ذات الخلفية الشرقية المحافظة، «الكلاكيعى»، أخبرت فيكى أننا نعيش حياتنا بدون «شرنكات» ونعتبر أن الذهاب للطبيب النفسى هو أول خطوة للسرايا الصفراء، وأن العيادة النفسية عندنا تعني أن المواطن «مناخوليا» ياختى يافيكى.

رددت فيكى القول الأمريكى المأثور «ياربى.. ياربى.. التعب النفسى لاعلاقة له بالجنون أيتها الشرقية المتخلفة».

فى المساء عرض التليفزيون برنامجا عن الاكتئاب النفسى قالوا فيه إن الاكتئاب مرض عضوى لابد من علاجه بالعقاقير والأدوية، وانه يؤدى إلى الانتحار بنسبة ٦٪ يعنى ينافس أمراض القلب والسرطان وضغط الدم، اللهم احفظنا.

قلت لفيكى:

ـ ياربى.. ياربى.. أنا لست مكتئبة، بل تعبانة، مرهقة أشعر بوحدة

قاتلة.

قالت:

ـــ أنت فى حالة Home Sickness إنها حالة معروفـــة. فى الغربة يشعر الإنسان بالوحشة والوحدة ويفتقد أهله وبلده وناسه.

بكيت نعم، أفتقدهم جميعا بشدة.

قالت فيكى متأثرة:

ـ ياربى.. ياربى.. وماذا تفعلون فى الحياة بدون «شرنك»؟.

قلت لفيكى:

ـ نقــول: يارب بصدق وحين نتعب ونشعــر بوطأة وقســوة أزمة طــاحنـــة نــزور الأهل، نــرتمى فى حضـن الأم، نلجــأ لـحنــان الأخت، ونحتمى بـرجـولـة الأخ. نتمـرغ فى دفء صـــداقــة حميمــة، ونبكى ونفضفض عن أنفسنا فى بيت الجيران، وتشكـو العمة لبنت الخالة فى التليفون. عندنا مؤســســة اجتماعية اسمها الارتباط الأسرى، وشركة مساهمة نستثمــر فيها المشاعر الإنســانية اسمها الصداقــة، وهؤلاء بألف «شرنك» من بتوعك، لأنها مشــاعر بدون مقــابل، وعواطف غير مدفوعة الأجر.

نحن نحتفل بــالأفــراح والأحزان جماعــة، ونصرف مــا فى الجيب، ونقترض من بعضنـــا البعض وليس من البنك، فى الوقت الــذى تعيش

فيـه الغـــالبيـة العظمى من الشعب الأمـــريكى على دفتر الشيكـات، والحساب فى البنك، حتى لـو كان عـامل نظافة، فـلابد لـه من تاريخ بنكى، وهـذا أهم من تاريخ الميـلاد، وكلما كان رصيـدك من الديـون ومن الأقساط أكبر، كلما زادت مصداقيتك، وكلما كانت فرصتك أكيدة فى الاقتراض، أما إذا كنت من أصحـاب الصفحة البيضـاء الخالية من القروض يصبح من الصعب الثقة بك، ومنحك قـرض بسهولة، ومن ثم يحمل النـاس من أجل الضمان والأمـان والتـاريخ البنكى دفتر الشيكات فى كل مكان، ودفتر الشيكـات يحميك من مطامع اللصوص والنشـالين الذين يبحثـون عن العملـة الدولاريـة، ومن ثم فإن دفتر الشيكات يضمن لك رصيدا من الـديون الدائمة، ومن الخوف والقلق من احتمال عدم القدرة على تسديد هـذه الديون. الغالبية العظمى من الشعب المصرى يتعاملون بـالجنيه فى شوارع القاهرة، وثـلاثة أرباع مـوظفى مصر يشترون حـوائجهم ويـواجهون مسئـوليتهم الماديـة الجسيمة بفلـوس «الجمعية».. والجمعية يا أختى يـافيكى فى المكاتب والوزارات، والعمارات، والأحيـاء الشعبية، وهى بنك شعبـى مصغر قائم على رصيد الثقة، ورأس مال التكافل والود الاجتماعى، والتآخى الإنسانى.

أعجبت فيكى فكرة الجمعية خاصة أنها بدون فوائد.. يعنى قرضا

حسنا فى بلاد اخترعت القروض والفوائد.

والنظام الـرأسمالى، هو الـذى أفرز المواطن الاستهـلاكى، وجعله يعيش ويمـوت فى دوامـة الاستهــلاك والشراء، والطبقـة الـوسطى والـدنيـا وحتى الفقــراء ينغمســون فى شراء البيـوت، والسيـارات، والثلاجـات والميكروويف والفيـديو والكـومباكت ديسك عن طـريق أخطبوط الاقتراض وعنكبوت «استلم الآن وادفع غدا».

غير أن هذا النظام الذى ابتدعته الرأسمالية الأمريكية، وسع دائرة المشترى والمستهلك.

ومن ثم فإن هذا الإطار الاقتصادى، يجعل الحركة المالية فى فوران ودورة دؤوبـة لاتنتهى، والســوق الأمريكيـة بـاتســاع المحيط تمثل تطبيقـا عمليا واسعـا لـلاقتصــاد الحر القائم على تشجيـع التناحـر الاقتصــادى، وتفجير طاقـة المنافسـة، وتحميس كل عوامل العـرض والطلب فى معادلـة تشبه جنـون سباق السيـارات، وهو نظـام يفجر الإبداع، ويـزيد من إمكانيـات التطور، ويجعل الحيـاة كخلية النحل، ومن ثم يرفع من قيمة العمل إلى السماء السبعة، وإن كان لهذا النظام مزايـا كثيرة، إلا أن له عيوبـا منها : أن المنافسـة الحارة المزدهرة هى التى تقتل بعض النفـوس، ويتفشى الإحبـاط والانتحار، لأن العجلـة السريعة تـدهس، وتهرس الفاشلين، ومن ثم فإن هـذا مجتمع البقاء

للأصلح.

ظلت «فيكى» تفكر فى موضوع «الجمعية» المصرية، وسألتنى فجأة:

ـ فلنفترض أن واحدا من المشتركين فى الجمعية مات. أين التأمين؟.. من يسدد القسط؟

قلت لها:

ـ يافيكى عندنا نظرية فلسفية رائعة فى كلمتين نرددها فى مثل هذه الأحوال، عليه العوض ومنه العوض، وهذه النظرية الشعبية تتطلب قدرة إيمانية عالية، وتسليم بالقضاء والقدر، ولاتعرف نظريات التأمين.

أصبحت فيكى تؤدى فى حياتى دورا له أبعاد، فإلى جانب كونها كتيبة آلة كاتبة ملاكى فهى تقوم بدور «الشرنك» «شكك» أى بدون مقابل، ودور الباحثة الاجتماعية فى الحياة الأمريكية والمصرية من فرط المناقشات المتبادلة بيننا، هذا إلى جانب صداقتها، وإخلاصها، وانبهارها بمحسوبتكم.. نفرتيتى المصرية.

الأستاذ يضع أحمر شفاه!

«رب صدفة خير من ألف ميعاد».

فعلى الرغم من أنى لم أذهب إلى «الشرنك»، إلا أنه أتى إلىّ.

كنت أقوم بالإعداد لإخراج مسرحيـة موسيقية غنائية على مسرح جامعـة «جورج واشنطن»، وكان علىّ إجراء اختبـار لاختيار الممثلين كما جرى العرف فى المسرح الأمريكى.

يستدعى المخرج الممثل لقراءة الـدور، وقاعدة الاختبار والاختيار هـذه تنطبـق على الجميع حتى لـو كـان هـذا النجم هـو «ربـورت ريدفورد»، أو كانت النجمة «جين فوندا».

هنـاك أصول للهـرم الـدرامى، المخـرج يخرج ويتخذ القـرارات،

والممثل يمثل ويطيع الأوامر. لاممثلة تطلب تغيير السيناريو لأنها لاتريد أن تقوم بدور الأم لأنها مازالت «ننوسة عين أمها صغنونة لاتصلح لدور الأم». ولاممثل يشخط وينطر ويقول: أنا النجم الأوحد. وهذا لايعنى أن هوليوود لاتزخر بالفساد وأن العلاقات والمصالح والصداقات تتحكم أحيانا فى صناعة السينما. لكن هناك الحد الأدنى من الجدية واحترام العمل الفنى. هناك الخط الأحمر الذى لايسمح بإعطاء البطولة لممثلة درجة ثانية لكونها صديقة المنتج، فى أمريكا بزنس إز بزنس. وهناك وظيفة خاصة فى السينما الأمريكية ومهمة للغاية اسمها Casting.

وهذا شخص عمله الأساسى هو العثور على الممثل الذى يصلح للدور، وعليه أن يعرض الأسماء على المخرج ثم يقوم المخرج بعمل الاختبار والاختيار.

ماعلينا، كنت اقوم بعمل Audition، او عملية انتقاء للمشتركين فى المسرحية الاستعراضية «جاك بريل بخير وبصحة جيدة ومازال يعيش فى باريس».

نعم.. هذا هو عنوان المسرحية التى تعتبر من الكباريه السياسى.

كان المتقدمون من طلبة قسم التمثيل والدراسات العليا والهواة، والهواة هم عشاق فن التمثيل دون مقابل، كل أمنياتهم فى الحياة هى

الاشتراك فى عمل فنى مع بصيص من الأمل أن يصبح يوما ما بضربة ما، نجما معروفا.

وكنت أتصور أن الهواة هم فى العادة «ناس فاضية»، «ناس فايقة ورايقة»، يعانون من الملل والزهق.

اكتشفت فيما بعد ....

أن هواة التمثيل من المحامين والمحاسبين والأطباء، وحذروا فزروا من أى مهنة أيضا؟ من الشرنكات طبعا.

المفاجأة أن الذى وقع عليه الاختيار لدور البطولة كان شابا هاويا وسيما مهذبا، صاحب صوت رخيم، وأداء رائع، تفوق به على الممثلين المحترفين، وحذروا فزروا ماذا يعمل؟.

طبعا «شرنك».. أو طبيبا نفسيا.

قلت لفيكى: الله عندنا واسطة.. سوف يتم علاجنا مجانا!

وهذه هى النظرية الشرقية فى استغلال المعارف والأصدقاء.

أكدت لى «فيكى» أنه لايوجد شىء مجانا فى أمريكا، ماعلينا.. بدأنا البروفات.

ومن العجيب أننى لاحظت تفانياً شديداً فى العمل، ودقة غريبة فى مواعيد الحضور، والتزاما كبيرا من جانب الهواة الذين يعملون دون مقابل أكثر من طلبة قسم التمثيل الذين تعتبر هذه المسرحية جزءاً من

دراستهم، يحصلون فيها على درجات.

أما الذى كان يتأخر بالطبع فهو «سيادتى»، كانت مساعدتى تعد لى جدول العمل بالدقيقة والثانية. يعنى نبدأ فى الخامسة والثلاثين دقيقة، ثم سبع دقائق تمرينات للاسترخاء، وفى الخامسة وسبع وثلاثين دقيقة يبدأ المشهد رقم ثمانية لمدة خمس وعشرين دقيقة، وهكذا.

تأدبت، وتعلمت الدقة ، واحترام قيمة الوقت.

أما حكاية الاسترخاء فكانت بالنسبة لى مسألة توتر وإحراج . وقصتى مع تمرينات الاسترخاء بدأت فى بداية العام الدراسى فى أول محاضرة.

حيث تبدأ التمرينات العملية التمهيدية فى أى جلسة درامية تمرينات الاسترخاء العقلى والبدنى. وكانت أستاذة مادة التمثيل تطلب أن نستلقى على الأرض، ونغمض أعيننا، وننظم النفس.. شهيق.. زفير.. شهيق.. زفير. ثم يقوم كل طالب أو طالبة بعمل تدليك أو مساج لزميله أو زميلته المجاورة «هو وحظه».

وكنت قد وافقت على مضض على الالتحاق بمادة التمثيل لأن رئيسة القسم «ليزلى» أصرت أننى لا يمكن أن أدرس مهنة الإخراج دون أن أدرس مهنة التمثيل، وأقوم بممارسة جميع العناصر الفنية

المسرحيـة، من تمثيل، وإضـاءة، وديكـور، ومـلابس، يعنى لابـد أن يدرس المخـرج فن التمثيل ولكن ليس من الضرورى أن يحترف مهنة التمثيل.

وقـد قبلت دراسـة التمثيـل «غصب عنى» لكنى لم أكن أعـرف بحكاية التدليك المتبادل. قلت للأستاذة:

ـ اسمعى يا «لين» صحيح أنا درست فن الباليه فى أكاديمية الفنون لكن كان عنـدنا أسـاتذة متخصصـون فى فن «المساج»، دارسين لمادة التشريح البشرى، ويعرفون أصول المهنـة. لكن لن أسمح أبداً.. أبداً.. لجنس مخلـوق أن «يفعص» فى رقبتى أو فى ظهـرى تحت شعـار «الاسترخاء العضلى»..

تمثيل نعم.. لمس لا!

ـ هذه بلد الديمقراطية، وأنها تحترم خلفيتى الحضارية!!

لكن الأعجب مـن ذلك، أن دروس التمثيل لم تقتصر على التـدليك المرفوض، بل أصابتنـى حالة من الذهول حين اكتشفـت أنه لاحياء فى دروس الدراما، وأن مشاهد القبلات المحمومة من ضمن المقرر!

قلت للأستاذة:

ـ اسمعى يا «لين»، أنا لا أريـد لاتمثيل، ولا إخراج، أنا بنت شرقية محافظة لايعجبنى الحال المايل، وتعليم المصـداقية الفنيـة عن طريق

التقبيل لايدخل عقلى. وفن التمثيل كما درسناه معك أيضـا، هو «لعبة الايهام بالواقع» وليس تصوير الواقع حرفيا.

وأنـا لا يهمنى إذا اعتبرتمونى رجعيـة ومتخلفـة. ضحكت «ليـن» وأكـدت لى أنها تحترم خلفيتى الحضـاريـة.. واكتفيت بـالشهيق والزفير.

ما علينـا، حصل على دور البطولة الطبيب النفسى الشـاب الغاوى الهاوى. بدأنا البروفات والبنات فى حالة وله من شدة الإعجاب بالبطل الوسيم، وطبعـاً كل واحدة تلجأ له بمشكلة نفسيـة معقدة فى محاولة يائسة لجذب انتباهه.

فازت فى هـذا السباق المحمـوم على قلب الـدكتور «ديفيـد» البطلة «بـاتـريشيـا». وهى فى الحقيقـة ظـاهـرة تحدث للكثير من الممثلين والممثلات حين يندمجان فى الدور، ويصبح التمثيل حقيقة.

كانت «باتريشيـا» تحب «ديفيد» على خشبة المسرح وفى الكواليس. عـاشت «باتـريشيـا» قصة الحب المتأججـة، نظـرات، وابتسامـات، وحكايات. و«بات» «اسم الدلع» تحلم تعش الزوجية العامر «الأستاذ شرنك» من هـؤلاء الذين يتقـاضـون تسعين دولارا فى السـاعـة وهى تتقـاضى هذا الأجـر عن أسبـوع من العمل جـرسونـة وهى تعشق التمثيل الذى هو مهنة الفنانين الفقراء إلا إذا ضرب معك الحظ ضربته

وأصبحت نجما فى هوليوود.

والدكتور «ديفيد» عريس لقطة.. قيمة.. ومركز.

هناك ميثاق عام غربى ينص على الاحتفال بقيم الحب.

النـاس تحب أن تـرى وتسمـع وتشم رائحـة الحب، ولايمكن أن يتدخل أى انسـان فى حياة إنسـان آخر تحت شعـار عيب أو حرام أو «روح كلم بابا».. لأن الحب قرار شخصى مستقل يقـدم عليه طرفان بكامل إرادتهما وعليهما تحمل العواقب.

والقبلة على الملأ وعلى قارعة الطريق حلال، والحرام عندهم هو أن تحلق أو تعتدى على خصوصية العشاق، ويمكن « أن تروح فى حديد» عقابا لك لأن القانون لا يجرم القبلة لكنه يجرم المتطفلين.

وتطبيقا لميثـاق «يحيا الحب». كـانت الفرقـة كلها تحتفـل بقصة «ديفيد» و«بـاتريشيـا» ولكن لا توجـد جنة مـن غير نار، فجـة بدأت تعيش «بـات» أيامـاً سوداء تعـانى فيهـا من ابتعاد وهجـر وغضب «يفيد» المفاجىء.. نوبات غريبـة عجيبة كانت تصيب سعادة الدكتور النفسى «الشرنك» الذى يعالج الناس، يعنى الـدكتور كان فى حاجة إلى دكتور. ذات يـوم جاءنى «ديفيد» محمـلاً بالهموم والأحـزان، يشكو ويتوجع من عذاب الحب وسنينه.

أكـدت لـه بشهامـة وجـدعنـة مصريـة أننى سأقـوم من منطلق

الصداقة بالتدخل مع الطرف الآخر، وقلت له:

ـ عندنا فى البلد نقول «ناقصات عقل ودين» ياديفيد، وأنا أدرك أن التعنت والعند والتمسك بالرأى قد يصيب أى علاقة عاطفية بهزة عنيفة. بكى الدكتور «ديفيد» وأكد لى أنه لاعند ولايحزنون. بل المسألة مسألة غيرة وحيرة وشك ونار ومرار!

هنا انبريت مدافعة عن زميلتى وصديقتى وبطلتى:

ـ إلا الشك يا أستاذ «ديفيد» أنا لن أسمح لك.. قل إنها الغيرة العمياء، وأنا واثقة من أخلاق صديقتى، «بات» فل الفل، ومثل الجنيه الدهب (لايعرف ماهو الجنيه الدهب ومن ثم لم يفهم) «بات» فل الفل ومثل الدولار اللى بشوكه الذى خرج لتوه من خزانة البنك ـ فهمت ـ (لم يفهم!)

أقصد أنه لم يمسها أو يمس مشاعرها النقية سواك يا دكتور. هذه بنت نادرة من طراز «ممنوع اللمس».

جاءت معى من الأرياف، هذه جوهرة فى هذا البلد الذى انفلت فيه عيار البنات، على كل الأحوال سوف أتكلم معها. لطمتنى المفاجأة، أصابتنى بالشلل.

انعقد لسانى مائة عقدة وشنيطة حين أعرب لى الدكتور «ديفيد» فى رغبته فى أن أقوم بهذه المهمة الإنسانية الا وهى (توفيق رأسين فى

الحلال) إلا أنــه همس لى بتعديل بسيط، ألا وهــو أننى يجب أن أتكلم معه وليس معها.. نعم.. معه!!

ـ مع من يادكتور؟

قال وهو يسبل عينيه، ويبربش رموشه فى رومانسية حالمة:

ـ مع جون.

هكذا بكل بساطة..

ـ من مين يا أخويا.

ـ جون .. المشرف على إعداد الملابس.

ـ ثـانى.. ورايا ورايـا، أنا مـاصدقت نسيت مـوضوع هـامبرجر «أرنست» جرس الإيدز دق فى نافوخى.

بعد أن أفقت من الصدمة الأولى نظرت إليه فى ذهول. الدكتور رجل ملء هدومه. مستحيل، شىء لايصدقه عقل!

والبنت المسكينة المخدوعة فى الرجل « عفوا .. غلطة مطبعية»

الدكتور «الشرنك» غارق لشوشته

واكتشفت فيما بعد ....

أن المشرف على قسم الملابس، فنان غاوى وهــاوى يرتدى ملابس النسـاء، وهذه الفئة من الشواذ يطلقون عليهم الـ Transvas tite.

كل شحط منهم يـرتدى فستـانا نســائيا ويهرول فى الأســواق فى

أقســام الملابس النســائيــة يتســوق البلوزات والجونــلات وكنت كلما شــاهدت بالصدفة «ترنس» من هؤلاء تصيبنى حالة غثيان، خاصة لو كان يضــع الباروكــة ويلبس فستانــا قصيرا، وتبرز عضلات ســاقه المثيرة للقىء وقدمه فى حجم البلاطة يتمخطر بالكعب العالى.

واكتشفت فيما بعد ....

أن المشرف على قسم الملابس لم يخرج من الخزانـــة بعـد لأنــه لم يعلن على الملأ كل هذه الأسرار الــرهيبة، وعلمت أنــه يعمل فى المســاء فى حانــة Drag queen، وهى حــانة يقــوم فيهــا هؤلاء الشــواذ بأداء استعراضات مسرحية غنــائية نسائية يقلدون فيها «مــارلين مونرو» و«جوزفين بيكر» و«مــارلين ديتريش»، والمتفرجون من ذاك الصنف كذلك.

وكلمة «دراج كوين» تعنى ملكة الهلاهيل أو الأسمال البالية، الملكة التى ترتــدى أسمالا ممزقــة. وكلمة «دراج تريــد»، منطقة وصنــاعة الملابس فى نيويورك، ومن ثم اكتسبت كلمــة «ملكة الهلاهيل» مفهوما أمريكيــا خاصــا يصف الرجــال الذين يعيشــون داخل ثيــاب النساء ويحترفون مهنة الــرقص والغناء. ومن مصائب الدهر والــزمان، أنه لايمكن أن تفرق فى بعض الأحيان هل هذا رجل أم امرأة.

واكتشفت فيما بعد ....

أن الدكتور «ديفيد» قد وقع فى غرام غادة الكاميليا «جون» من أول نظرة. لطمت الخدود ولجأت إلى «فيكى» مولولة!

ـ مصيبة يا «فيكى» مصيبة.. كيف لنا أن نخبر «باتريشيا». تلقت فيكى الخبر فى برود وقلبت شفتيها فى تفكير عميق وقالت:

ـ No Problem «مافيش مشكلة».

لم أتوقف عن وصلة الندب من مقام «صبا الحزين» أعدد فيها ميزات «باتريشيا» النقية البريئة.. العذراء. و«شخطت» فى «فيكى»:

ـ هو كل حاجة فى الحياة No Problem «نو بروبلم»، تحلون المشاكل بكلمة «أرجوك حلى لى هذه المشكلة المستعصية».

أكدت لى «فيكى» أن النقاء والبراءة والعذرية عيوب وليست ميزات..

فالبنت المجربة أفضل من البنت الخام التى تعتبر عبيطة أو متخلفة. وكان القسم بأكمله قد تقبل فكرة يحيا الشرق المحافظ واعتبروا أن تمسكى بتقاليدى وتاريخى وحضارتى تخلفا مقبولا ومحمودا، باعتبار أن هذه بلد الحرية والديمقراطية، واحترام الرأى الآخر، ومن ثم احترموا «خلفيتى الحضارية» لكن «باتريشيا» تعتبر عبيطة وساذجة ومتخلفة بالمنطق الامريكى لأن خلفيتها الحضارية تحتم عليها خوض التجربة وهى فى الثالثة عشرة. لكن ليس هذا هو

بيت القصيد، كيف نخبر البنت المسكينة بالحقيقة المرة العلقم «وإن العريس طلع عريس الغفلة».

واستمر دكتور «ديفيد» فى محاولات الصلح مع «غادة الكاميليا» «جون» وجاء يحمل لى الخبر فى سعادة غامرة ونبرات هادرة وأن مقصوف الرقبة «جون» قد قبل دعوة على العشاء.. ووجدت الدكتور يامحترم يسألنى فى رومانسية:

ــ ماذا أطبخ له إن جاء يسألنى إن كنت أكرهه أو كنت أهواه؟ ماراأيك ياعزيزتى فى اللحم البتلو بعش الغراب، وسلطة خضراء «زرعى» والحلو بودنج الشيكولاته.

قمت بتعديل بسيط، اقترحت عليه «سد الحنك بالسم الهارى» فى الوقت ذاته جاء الأستاذ «جون» الذى كان يحضر للجامعة وهو يضع الروج والماسكرا يسألنى عن أنواع أحمر الخدود الموضة، وترى ماذا يلبس الليلة. الفستان الأحمر أم البرتقالى؟! أستاذ أزياء حضرته، وله فلسفة فى ارتباط اللون بالحالة النفسية.. المتأججة..

كررت بينى وبين نفسى صرختى المكتومة «تعالى لى يا امه». وتعلمت بديبلوماسيتى السويسرية الصمت وكلمة «بدون تعليق».

مطلوب رجل أبيض.. خفيف الظل!

جلست «باتريشيا» تبكي وتشهق وقلوبنا تتمزق، نحاول تقديم فروض العزاء والمواساة، ونحاول التهوين من أمر «المقلب» الذى شربناه جميعا فى سعادة «الشرنك».

ودارت المناقشة حول الخطر الذى أصبح يهدد المرأة الأمريكية بالعنوسة، وهو انقراض عدد الرجال العزاب والمقبلين على الزواج.

أربع شابات فى عمر الزهور جلسن يندبن حظهن التعس وصنف الرجل المنقرض، الرجل الشهم المسئول، العاطفى.

انضمت إلينا فى جلسة النكد «آن» وهى فتاة سمينة تشبه إلى حد كبير إطار سيارة نقل، ومن ثم فإن مشكلتها أكثر تعقيدا واحتمالات

تهديدها بالعنوسة عالية جدا.

أولا : هناك قحط فى سوق الرجال.

ثانيا : إذا وجد الرجل فلماذا يعيرها النظر والستات أكثر من الهم على القلب.

اقترحت «آن» علينا على سبيل الفرفشة أن نلجأ إلى حل عبقرى لمجابهة خطر العنوسة واستحالة العثور على رجل أو عريس عليه القيمة وكان هذا الحل هو: إعلانات الحب!.

وأنا أعرف أن البنات يبحثن عن قصة عاطفية فى البارات الشبابية التى يلتقى فيها الرجال والنساء، أو فى محلات الديسكو، والمثقفون منهم يتعرفون على غايتهم المنشودة فى المكتبات، لكن أن يحدث تعارف عن طريق إعلانات الحب فهذا شىء جديد لم أسمع به من قبل.

أثارت دهشتى سخرية البنات وكررن القول المأثور «متخلفة».

وكررت لهن شعارى الوطنى «يحيا الشرق المحافظ».

ولما زأرت وزمجرت قالت «آن» : إنها ليست إعلانات حب حقا بل هى إعلانات البحث عن صحبة.

لكن على مين؟ الغرض بالطبع هو البحث عن حبيب، عن الدفء والحنان والصحبة والعاطفة والجنس وربما الزواج. وهى إعلانات

غـريبــة الشكل تنشر فى بعض الصحف والمجـلات وفيهــا يتحـول الإنســان إلى بضـاعـة، والشـاطـر الـذى يعرف أفضل أسلـوب لجذب المشترى.

أمريكا التى كتب عنها الكاتب المسرحى الكبير «أرثر ميللر» رائعته «وفاة بائع متجـول»: هذه بلاد البيع والبائعين. هــذه بلاد جعلت من مهنة البيع العمود الفقرى للحيـاة. كل شىء خاضع للعرض والطلب والبيع والشراء. وكل شىء يمكن أن يصبح بضاعة رائجـة أو بضاعة كـاسـدة. حتى الإنســان أصبح يعـرض نفســه للبيع على صفحـات المجلات، يعـرض عواطفـه وأحلامــه وأسراره الدقيقـة على صفحات الجرائد:

ومن نماذج إعلانات الحب التى وجدناها الإعلان التالى:

أنا رجل أبيض قوقازى

أبلغ من العمر التاسعة والعشرين

طويل ، أنيق، وسيم، جميل

جمال مالوش مثال، كريم،

مثقف، خفيف الظل وظلى

خفيف. أحب الموسيقى

والمسرح والفنون وركوب الخيل

واليخوت والتزحلق على الجليد

والذهاب إلى أرقى المطاعم وأحب

الاستمتاع بالحياة.

أنا رومانسى، وعاطفى ،

وشهم،

باختصار

كامل المعانى، ماحصلتش.

أعانى من الوحدة، وأريد

صديقة تقاسمنى ثروتى،

وسعادتى.

العنوان : ....

أرسلى صورتك وعنوانك.

وعلى هذا المنوال، ورجال ونساء، يعلنون عن أنفسهم من شتى الأجناس والأعمار، كل يحاول ترويج بضاعته .... «نفسه»

ـ يابنات .. هذا كلام لايصدقه إنسان عاقل.. هل هذا معقول؟! لو كان «المحروس» بكل هذه الصفات العظيمة والإمكانيات الجبارة، لماذا يبحث عن عروسة عن طريق إعلانات الجرائد، لابد أنه كذاب، نصاب، ابن نصاب، لو كان لديه كل هذه الصفات والميزات لابد أن يخطف

خطفا.

ونقحت علّ صراحتى الشرقية المحافظة وقلت لهم.

هـذا سوق رقيق صحفى، هـذه تجارة رخيصـة لأنبل العلاقـات الإنسانية.

قررت «آن» أكثرنا يأسا وإحبـاطا أن تنشر إعلانا عن نفسـها تبيع فيه أنـوثتها وتتسول فيه أحـلام الحب، وأوهام الغرام. طبعـا قامت ببعض التـزويـر الشريف ولم تـذكـر وزنها ولاحجمهـا. وجـاءت الخطابات بالمئات.

صدقوا أو لاتصـدقوا، بدأت «آن » تنتقى وتختار مثـل «على بابا» وهو يـردد «دهب.. ياقـوت.. أصبحت «آن» تردد.. جـورج.. مايكل.. مرجان.

بل وصل بها الحد إلى عرض فائض خطـابات المعجبين على البنات القانطات من العوانس التعسات.

ولم يقف بها جنون بيع نفسهـا على صفحات الجرائد، بل اتجهت إلى شركـات متخصصـة فى تـوفيق الـرؤوس فى الحلال أو فى الحرام «أستغفر الله العظيم» وهـذه الشركات تعمل بالكومبيـوتر وليس من الضرورى أن تـذهب إلى الشركـات شخصيـا. كل المطلـوب هـو دفع اشتراك فى شبكة الكومبيوتر الأم، وبدلاً من الاتصال بالتليفون كـانت

«آن» تقضى ساعات الليل أمام الكومبيوتر تناجى أصدقاء التكنولوجيا وتتعرف على أشكال وألوان الأمريكان ليس فقط فى الولاية، بل فى أنحاء القارة الأمريكية. إنهم جميعا يعانون من الوحدة القاتلة، والإحباط الشديد، والتفتت الأسرى. يبحثون فى الفضاء عن حلم مجهول، حلم مستحيل ، حلم الأمان والاطمئنان والدفء والحنان.

واشتركت «آن» فى نادى للفيديو، يسجلون فيه شريط يصور المرشح للعلاقة المنشودة يذكر فيه الاسم والسن والهوايات. والعنوان، ويعرض نفسه للبيع بالصوت والصورة. والصورة لم تساعد « آن» للأسف. لكنها عثرت على ضالتها عبر الكومبيوتر. لقد أحبها مجنون تعارف كومبيوترى دون أن يراها. أحب شخصيتها وذكاءها وإنسانيتها. وتيجى مع العمى طابات.

وفى النهاية ينتصر الحب حتى لو تلاقت الأرواح عبر كابل كومبيوتر.

الأستاذ "منبهر" ابن "معجب"!

انقسمت صداقاتى: بين صديقاتى الأمريكيات من الجامعة، وصديقاتى المصريات والعربيات من الجالية. ونظرا لانشغالى فى العمل والدراسة، لم أكن أقوم بواجبات الزيارات الاجتماعية بانتظام. وخاصة لو دخل الإنسان فى دوامة «الجالية» الشالية فقط لاغير لن يشعر أنه انتقل من الدقى إلى سبرنج فيلد.

الغربة تجعل العلاقات وثيقة بين المغتربين..خلّوا بالكم هناك مغتربون جاءوا لغرض ما، دراسة أو عمل، وهناك مهاجرون. ومابين درجة الإقامة الممنوحة للشخص والبطاقة الخضراء وجواز السفر يظل الإنسان يتأرجح بين الوطن الأم والوطن الجديد.

والغربة تفرض صداقات غريبة، أناس لايجمع بينك وبينهم أى شىء سوى الغربة. أناس لم تكن فى العادة وأنت بين أهلك وناسك تعقد معهم صداقة، قد تكتشف أنهم أكثر إخلاصا ومروءة وود وعطاء من أى صديق عرفته من قبل، وقد تكتشف أنه كان يوما أسود يوم فرضت عليك الغربة صداقتهم.

والغربة امتحان لجوهر الإنسان، فى ظل المعاناة والكفاح والمنافسة والوحدة، إما أن تكتشف أن الناس ذهب عيار ٢٤ أو أنهم من صفيح وألمونيوم ونحاس صدىء.

والعقل العربى فى المجتمع الغربى يمر بدورة غريبة، فهو إما يدخل دائرة الانبهار والإعجاب والذهول والتقدير لكل ماهو غربى، ويفقد المقارنات من صنف: حظنا هباب، وحضارتنا المتخلفة.. وهذه هى دورة الرفض للماضى وللجذور — وهؤلاء عادة يتزوجون «خواجاية» لتعويض عقد نقص كثيرة ترجع إلى أيام الاحتلال الأجنبى (طبعا ليس كل من تزوج أجنبية تنطبق عليه هذه القاعدة).

والأستاذ «منبهر» ابن معجب، عادة مايعوج لسانه ويرفض التحدث بالعربية (حتى لو كانت إنجليزيته تعبانة). ولايهتم بتعليم أولاده العربية «هايعملوا بها إيه؟» لأنه قرر فى داخل نفسه أن يتبرأ من انتمائه العربى ويستبدله بالشخصية الأمريكية الجديدة. وكان

مايجعلنـى أستشيط غضبا فى بعض الأحيـان، أن الواحد مـن هؤلاء ترك مصر وهـو فى مقتبل الثلاثينيات، وكـان من مواليـد باب الخلق، وفجأة يقول لك : مش فاكر الكلمة دى بالأربى (بالعربى) من فضلك «كَسر» لى العشرة «دولار» (يقصـد فك لى العشرة «دولار».. الأستـاذ نسى لغة أهله وعشيرته).

وقد يظل الأستاذ أو الأستاذة من جمعيـة الانبهار فى حالة انبهار دائم، ويسلكـون السلـوك المتحـرر ويطلبـون منك أن تأخـذ الأمـور ببساطة Take it easy. ولايعرفون العيب أو الحرام أو الممنوع.

وهناك من يـدخل دائرة الانبهار، وبعـد سنوات تبلى هـذه الطبقة الزائفـة ويدخل فى دائرة «الحنين».. قلبـه وعواطفـه «تحن» إلى وطنه وتقاليـده وأهله. يبحث عن زوجة بنت بلـده، أو يبدأ فى دورة قلق على أخلاقيـات بناتـه فى مجتمع الإباحيـة الجنسية، يسـافر كـل سنة إلى الوطن حاملا الهدايا، عاشقا لكل لحظة يعيشـها فى وطنه حتى الثمالة، يبحث عن زوج لإبنته من نفس ديانته وحضارته.. ابن بلده.

وقد يظل فى دائرة الحنين سنوات عمره، وقد يقرر فى لحظة جريئة العودة إلى الوطن مهما كان الثمن.

وهنا يـدخل فى دائرة الرفض، الرفض لكل مـاهو غربى والمقـارنة بكل مـاهـو شرقى وعظيم وأصيل وتـاريخى، ويعيش بجسـده فى

أمريكا، لكن روحه وجوارحه ترفرف عبر آلاف الأميال فوق أرضه ووطنه.. وطن أجداده. وقد يظل رافضا معذبا برفضه، لايملك القدرة على اتخاذ القرار، لا بالانتماء الحقيقى إلى الوطن الجديد أمريكا، ولا بالرحيل والعودة إلى الوطن الأم، فيتحول إلى إنسان قانط حزين وتعس.

يعيش فى دائرة الاستنكار والشجب الدائم للحضارة الغربية.

والدوائر تتداخل وتتعارض، وقد يبدأ مغترب بدائرة الاستنكار والرفض وينتهى به الأمر فى دائرة الانبهار، وقد يبدأ مهاجر بدائرة الحنين ثم الرفض، ويظل يتأرجح كالبندول بينهما. وقد يظل المهاجر يدور فى دائرة واحدة مدى الحياة، فتطحنه داخلها فى دوامة رهيبة.

لكن على كل الأحوال موقف المهاجر الذى يعيش مع أسرته وأولاده مستقرا يكون أفضل حالا من المهاجر أو المغترب الوحيد.

وقد التقيت بعشرات من الفتيات المهاجرات الوحيدات، وكانت قصة كل واحدة تثير فى نفسى الشجن والحزن.

معظم القادمات بمفردهن سعيا وراء النجاح والاستقلال.

إما حضرن من أجل الدراسة أو العمل أو لقرابة تربطهن بالأسرة أو حتى فى زيارة وقررن الإقامة الدائمة و«الهجرة».

وحياة فتاة شرقية بمفردها فى الغرب من أصعب الامتحانات

الإنسانية فلا يوجد رقيب أو حسيب. الرقابة ذاتية تنبع من ضميرها، وعليها أن تواجه نفسها قبل أن تواجه العالم من حولها.

هناك الفاقدة المتحررة وهذه تكون طموحاتها فى العادة الارتباط بخواجة أمريكانى، وتبدى تأففها من الرجل العربى. وهى فى الغالب تعيش دور المهاجرة مدى الحياة، تتبرأ من انتمائها العربى وتنتمى إلى الحزب الديمقراطى الأمريكى، تفصل.. وتنفصل تماما عن مجتمعها الشرقى «المتخلف».

وهناك الرافضة العدوانية، الناقدة الكارهة للأمريكان وسنينهم. وتسألونها لماذا لاتعودين إلى الوطن، لايمكن أن تعطيك «عقاد نافع»! فهى ناقمة خائفة متقوقعة، من البيت للشغل وبالعكس، فى انتظار جودو «عربى»، وتمر السنوات وتجد نفسها فجأة «عانسا» وحيدة بدون أسرة ولا أطفال ولا أهل ولا عزوة.. مهاجرة إلى نفسها.

وهناك التى رقصت على السلم، تتقاذفها مشاعر متناقضة فهى تارة شرقية مائة بالمائة وتارة غربية مستقلة. تعيش حياة الازدواجية الرهيبة التى تمزق النفس وتفتت الشخصية. وهذه النوعية من المهاجرات أكثرهن معاناة وحساسية وصدقا.

تعلمت بعد أن دخلت وخرجت من دوائر الانبهار والحنين والرفض فن الانتقاء.. انتقاء مايصلح لى ويضيف إلى، ولاينتقص

منى. تعلمت السماحة وقبول الآخرين حتى لو أختلفت معهم فى الرأى تعلمت المرونة والصبر، وتعلمت قبل كل شىء الاعتزاز بمصريتى.

حاولت إقامة جمعية صداقة أمريكية مصرية فى بيتى. وكنت أدعو الزملاء والزميلات والأصدقـاء والصديقات على «عزومة» مصرية فى بيتى فى المناسبات والأعياد.

كانت فيكى وباتريشيا ونـانسى، قد جربن الطعام المصرى مرات عديدة وتعلمن كيفية طبق الفول المتين.

إلا أن الذوق والتذوق يختلف بصورة غـريبة من بلد إلى آخر. حين أقمت عزومـة «كوارع ولحمة رأس» فى منـزلى العامر، كـادت تصاب صـديقاتى الأمـريكيات بنـوبـة إغماء، ولم يصدقن أننـا نطبخ «لحم الـرأس». ولم تكن فيكى وبات وحـدهما، فالجزار شـخصيـا أصابـه الفـزع حين طلبت منـه الكـوارع ورأس الخروف وتشكك فى أمـرى (فربما كنت عضوة جمعية سرية تمارس طقوس وحشية همجية).

على الرغم من أنـه «يبيع» الكرشة للفـرنسيين (دون تأفف) الذين يصنعون منهـا طبقا فـرنسيا لـذيذا. وحين طلبت من الأستـاذ جزار الكبـدة والقلب والكلاوى والحلـويـات والمخاصى. حملق فى ذهـول، وطردنى من المحـل صـارخا: أيها الـوحوش.. أيها المجـرمون، سأبلغ جمعية الرفق بالحيوان عنكم.. إياك أن أرى وجهك هنا مرة أخرى.

على الرغم من أننى كنت عقـدت معه صداقـة وطيدة لشراء تموين «بنتلى» وولدة «ممكن»، وكان أحيانا يرسل الهدايا من العظم «لمكن» حتى «يرم» جثته ويتماثل للشفاء.

وياما ألقت فيكى «بالملوخية» فى الحوض معتقدة أنها طعام فاسد.. حاولت كثيرا إقناعها إن هذا هو منظـر الملوخية فقط لكن طعمها لذيذ للغاية، لكنها لم تقتنع أبدا.

وفى يـوم من الأيـام جـاءت بكتاب تـاريخ فى يـدهـا وهى تصرخ: مولوهية مولوهية..

ـ إيه الحكاية يافيكى؟

كان الكتـاب عن مصر، ويحكى قصة الحاكـم بأمر الله الـذى منع المصريين من أكل الملوخية..

كـانت وثيقة اتهام للملـوخيـة.. وثيقة دامغـة، سألتنى: لماذا إذن تصرين على طبخ «المولوهية» وتدعين أنك لاتستطيعين الحياة بدونها؟ وقد عاش المصريون بدونها حسب أوامر الحاكم بأمر الله.

قلت لها: يافيكى كـان رجلا مجنونـا، كان عنده كراهيـة عنصرية طائفيـة للملوخية، لأنه كـان من الشيعة ويقال إن أهل السنـة الكرام كانوا يحبون الملوخية.

ثم إنه يعتقد أن بها منشطات!! فاهمة؟

ليس هناك ألـذ من الملوخيـة. باءت كل محاولاتى بـالفشل وظلت فيكى تلقى بـالملوخيـة كلما طبختها مـؤكدة أنها طعـام فاسـد لونـا ورائحة.

ويـوم هـربت لنا لفـة فسيخ من القـاهـرة، وجلست مع الجنـاح المصرى نأكلـه، فى شم النسيم، كـانت فيكى وأخـواتها مصرات على إبلاغ الإسعاف. أولا لأن الرائحة خانقة، ثانيا لأنها كانت متأكدة أننا سنصاب بالتسمم حين أدركت طـريقة عمل الفسيخ المصرى! وأكدت لنا أن هذا يدخل تحت طائلة «الطعام العفن السام».

أمـا الجارة فكـانت على وشك إبـلاغ الشرطـة، حيث ظنت حين هاجمتها موجة الرائحة اللاذعة أن هناك «قتيل» فى بيتنا.

والمفارقات كثيرة.. الأمريكيـون يعتقدون أن ذبح الحمام وحشية، فـالحمام طـائر «يطير» ولايؤكل. ويتصـورون أن كل أنـواع الـذبح همجية، ويصابون بالغثيان أمـام منظر سمكة برأسها، حيث لابد أن تقدم السمكة «منزوعة» الرأس.

ومع كل الانتقادات لأكـلاتى الشعبية المصريـة، كنت أسخر منهم حين يتحـدثـون عن أكل الضفـادع وعن عشقهم لـلأكل الصينى واليابانى.. وفيكى التى انتقدت الفسيخ المصرى كانت تعتبر السوشى اليابانى والسمك النىء من الأكلات «الأنيقة»!!

وفى المطاعم المكسيكية يقبلون على أكل «نبات الصبار»!

نعم ينظفون قطعة الصبار من الشوك (كما نقمع البامية تماما) ثم يقومون بشوائه أو طهيه مع صلصة الطماطم الحريفة.

قلت لباتريشيا التى كانت تعشق الطعام المكسيكى: الصبار عندنا نبات زينة أو يستعمل فى تقوية الشعر.. كيف بالله عليكم أمضغ قطعة من المطاط اللزج؟!!

وقد اكتشف علماء النفس فرعا جديدا هو علم «القرف»! أو شعور الإنسان بالاشمئزاز والتقزز والقرف، وأكدوا أنه شعور مكتسب، تتحكم فيه عناصر التربية والتعود والدين والبيئة. وقد أجروا التجارب على قبائل أفريقية تأكل «مخ القرود» كانوا يصابون بالقىء حين أرغموا على تناول الإسباجيتى. ومن شعوب شرق آسيا يأكل التايلانديون الكلاب.

أصيبت فيكى بالإغماء حين ناقشنا هذا الموضوع، واحتضنت «ممكن» وانتابتها نوبة بكاء عنيفة.

موسيقى الجاز.. ووابور الجاز !

الثقافة فى قاموس المواطن الغربى ليست مجرد كلمة، بل هى أسلوب حياة.

والثقافة مطلوبة، ومتاحة.

من المكتبة الضخمة التى تحتل عدة طوابق، إلى مسرح الغداء ومسرح العشاء ومسرح الشارع، وفرق الباليه، ودور السينما، ودور الاوبرا، والمسارح الكبرى، والمسارح الصغرى، والمتنزهات العامة.

وحفلات المتنزهات العامة أصبحت من الرحلات المقدسة بالنسبة لى فى عطلة نهاية الأسبوع. وهى «فسحة» راقية ممتعة، بدون تعب الفسح الخلوية إياها!

تقام فى المتنزهات العامة حفلات الأوركسترا السيمفونى، وموسيقى الجاز الأمريكية (التى كنت أعتبرها من ضرب الحلل

النحـاس، لكنى اكتشفت بـالتدريب الاستماعى إنها مـوسيقى كلهـا شجن وإيقاع وعمق وعبقرية).

والاستمتاع إلى الموسيقى فى «الخلاء والعـراء» من أجمل التجارب الفنيـة، حيث تتردد أصـداء الموسيقى إلى عنـان السماء وتتفـاعل مع الطبيعـة السـاحرة (بـدون مطـر ورعـد وبرق). والنـاس يحملـون سانـدوتشات الهامبورجـر والبتيزا والهوت دوج، ويقضـون أمسية رائعة فى ضوء القمر مع بيتهوفن أو جيرشوين أو مع حلم ليلة صيف شكسبيرية. وتتزاوج المتعة الثقافية مع المتعة الترفيهية الراقية.

كـانت تعجبنى فكـرة «الثقـافـة التى تشـد رحـالها وتأتى إليك» ويتحول الحى أو المدينـة التى تقـام بها حفلة المسرح المفتـوح إلى مقر ثقافى ويعيش الكبار والصغار فى أجواء مهرجانية فنية ممتعة.

قـدمتنـى فيكى إلى نـوعيـة مختلفـة من الثقـافـة الشبـابيـة «المورستانية». أو ما أطلقت عليه «السينما الطقسية».

فى هذا النوع من السينما الاحتفالية يحول جمهور الشباب الأفلام الموسيقية الغنائية التى تحظـى بنجاح وإقبال منقطع النظير، إلى عادة وسلوك ومزاج شخصيا.

حيث تفقـد قصـة «الفيلم» فى حـد ذاته أهميتهـا، وتتـوارى خلف العلاقة المثيرة النابضة المتجددة بين المشاهد والعمل الفنى.

اختــارت فيكى فيلم استعــراض الـروك المرعب». وهمست لى أن الشـاب أو الشـابة، قد يذهب لمشـاهدة هذا الفيلم للمرة المائة.

ـ مائة مرة!!

صـحت متعجبة، ده يحفظه عن ظهر قلب!!

قالت فيكى وهذا هـو المطلوب إثباته، هـذا مايحدث بالضبط. إنهم يشاهـدونه لأنهم يحفظونـه عن ظهر قلب.. الجديـد أن تجربة التلقى الحية التى اخترعها الشباب. تجعل المشاهد يشعر أن كل مرة فريدة فى نوعها عن المرة السابقة. كانت كلمات فيكى طلاسم بالنسبة لى.. أكدت لى أنها تجربـة مثيرة واسال مجرب سينما طقسيـة، ولا تسال مثقف تعبان.

الفيلم من أفـلام موسيقى الـروك أنـد رول، فانتـازيا سينمائيـة جعلت من قصة دراكولا المرعبة، دراما موسيقية ضاحكة ساخرة.

على بـاب دار السينما كــان الشبـاب يقف طـوابير تمتـــد لعـدة كيلومترات فى الشـارع. وقد بدا الطابور كـأنه كرنفال أو حفلة تنكرية. شباب وشابات فى ملابس غريبـة.. ملابس دراكولا بالعباءة الحمراء أو السوداء، القميـص الأبيض والأنياب الصنــاعية (بلاستيـك لعبة) يخيفون بها المارة وقد وضع البعض ماكياجا مسرحيا مثيرا، والبنات فى مـلابس الخدم الأنيقـة (خدم شيك)، وشخصيـات تنكـرت فى زى

الحارس العجوز الأحدب القبيح. قلت لفيكى: هل هذه دار سينما أم مستشفى أمراض عقلية؟!

علقت فيكى: إنه شىء رائع حقا Fantastic

- رائع.... رائع O.Kاوكى.

وكنت قد تعلمت الاوكى الأمريكية الشهيرة، وأصبحت أستخدمها عند الرفض والإذعان أكثر من الموافقة.

جلسنا على المقاعد، والمتنكرون يتهادون أمامنا أمام ستارة السينما والصالة تصفق وتصفر.

اكتشفت فيما بعد.............

أن هذه مسابقة لأفضل زى تنكرى، وأن كل هذه الشخصيات هى شخصيات الفيلم الذى نوشك على مشاهدته.

يعنى أصبح هذا الفيلم بالنسبة للشباب لعبة يقلدها، مثل الطفل الذى يريد أن يقلد سوبرمان أو ميكى ماوس.

بدأ الفيلم الضاحك الباكى، المرعب الساخر. وكانت مفاجأة. الجمهور من الشباب يحفظ عن ظهر قلب حوار الفيلم.

فإذا سأل البطل البطلة.

- ماهذا المنظر الرهيب ياحبيبتى؟

تجيب البطلة على الشاشة والتى لاتسمع صوتها لأن الجمهور يرد

معها فى نفس واحد وهدير جماهيرى.

ـ هذا قصر رهيب عجيب ياحبيبتى.

وهكذا جملة على الشاشة، وجملة فى الصالة. حتى صوت المؤثرات الصوتية، إصطدام سيارة أو أزيز باب قديم، أو تهشم لوح زجاج يشارك الجمهور «جماعة» فى الأداء الصوتى ضاحكين.

مرة بوم بوم طاخ.. ومرة ش ش ش ش وهكذا.

وظهر على الشاشة الخادم الأحدب العجوز قادم من قلب الظلام فى صمت رهيب وتوجس مريب.. وأضاء شمعة على الشاشة. فى نفس اللحظة تلألأت صالة السينما بمئات الشموع (فى الواقع أضاء الجمهور مئات الولاعات التى أتوا بها خصيصا لهذه الغرض) وتحولت القاعة فى ثوان إلى تحفة مسرحية تنبض بالحرارة والجمال والوهج البديع.

وحين ظهرت البطلة فى ثوب العرس الأبيض، وكانوا يلقون فوق موكب العرس حبات الأرز الأبيض (على الشاشة) فوجئت بشلال من حبات الأرز الحقيقية تتساقط فوق رأسى ورؤوس الحاضرين، حيث أخرج كل متفرج من جعبته «كبشة أرز» ونثرها فى هواء القاعة فى تواكب زمنى مثير.. فهى تتساقط على الشاشة وعلى أرض الواقع..

أما أجمل لحظات العرض فكانت هى المقاطع الغنائية، حيث تنقلب

القاعة إلى كورال جماعى يصاحب الأداء الموسيقى والغنائى على الشاشة.

كانت لحظات عاصفة بالدهشة والثورة والحياة.

عرفت من فيكى أن من طقوس مشاهدة استعراض الروك المرعب تتم فى حفل منتصف الليل فقط.

والمثير للدهشة أن البناء الدرامى للفيلم يدور حول حكاية أسطورية مرعبة، طالما جعلت الدماء تتجمد فى عروق المشاهد (أيام زمان). كيف تحولت هذه الأسطورة إلى فيلم مسرحى ديسكو ساخر صاخب مثير؟!.. إنها تجربة تستحق التأمل. ونوع من السينما الطقسية الحديثة.

وهذه نظرية جديدة فى الانبساط الفنى.. ونظرياتهم كثيرة وعجيبة وذوقهم أعجب.

والمسألة مسألة أذواق و«خلفيات حضارية». يعنى مايستسيغه الذوق المصرى قد لايبلعه الامريكى أو الهندى. والشرق شرق والغرب غرب. ليس فى الفن فقط، بل فى الطعام والشراب والملبس والسلوكيات الاجتماعية. إلا أن العنصر الإنسانى يظل دائما عالميا، ومن ثم فإن فيلم «شروط المحبة» الذى يتناول حكاية صراع أم وابنتها لمرض السرطان مازلت تجعلنى «أتفحم عياط» أنا والكرة الأرضية جمعاء،

المشاهد إنسان سواء كان من أمريكا أو بلجيكا أو «المريخ».

هناك هوس أمريكانى بأفلام وروايات الخيال العلمى. ومازالت لا أنسى أول تجربة سينمائية لى مع فيلم عن الفضاء الخارجى.

كان فيلم «حرب الكواكب» الشهير الذى كسر الدنيا وحقق أكبر الإيرادات، دعتنى صديقتى كلوديا مع صديقها اليهودى (كلوديا مسيحية تهودت من أجل عيون الغرام.. أوكى). لكنها كانت يهودية متعاطفة مع القضية الفلسطينية!

طبعا كانت دعوتها «أمريكية» مدفوعة، وكل مسئول عن تذاكره.

ذهبنا لمشاهدة فيلم «حرب الكواكب» الذى اعتبرته كلوديا والحاضرون جميعا «نفر.. نفر» فيلما كلاسيكيا خالدا!

وكان الجمهور فى قمة الاستمتاع بأحداث الفيلم التى تدور على كواكب آخر. (اوكى). والحدوتة بسيطة تدور حول الصراع الدائر بين قوى الخير والشر. الأمير الوسيم النقى. أما شخصية دارث فادر (الذى دخل التاريخ بسلامته)، وهو رجل طويل «كينج ساين» يرتدى عباءة سوداء وقناعا صفيحا أسود، صوته رخيم مخيف (ذكرنى بمحمد الطوخى).

وشوفوا الصدفة، يطلع الأمير الخير ابن الطاغية الشرير (ذكرنى بأفلام حسن الإمام). ويحتدم الصراع بين الأب والابن بسيوف من

أشعة الليزر! حول «القوة».

هـذه القوة الخفيـة التى يستمـدها الإنسـان من الإرادة والإيمان (إيمان بالقوة.. واخدين بالكم)!

ومغامرات فى طرقات ضيقة وإنسان آلى مسخوط خفيف الظل وآلى آخر غلبـان وأخنف على الطريقـة الأمريكية، ومخلـوقات غـريبة من الفضاء الخارجى عيونها تطـق شرار. والكبار يستمتعون بهذا الفيلم قبل الصغار، أيما استمتاع، إلا مشاهد واحد فقط هو سعادتى القادمة من حضارة سبعة آلاف سنة. اعتبرت إن هذا لعب عيال وفيلم أطفال، وتخريف فى تخريف.

ذهلت كلـوديا، تعجبت من رد فعلى، فهى ابنـة حضارة حلم قهـر الفضـاء الخارجـى والخيـال العلمى والطلـوع إلى القمـر، والأقمار الصناعيـة ومركبات الفضـاء. أبطال طفولتهـا هم السوبرمـان الذى يطير ويتفسح بين الكواكب بسرعـة صاروخية، وجيمس بونـد قاهر الجبابرة.

أما أنا فـابنة حضارة شايفة القمر يـاليلى، والشاطر حسن وست الحسن والجمال وروايـات يوسف السبـاعى وإحسان عبـدالقدوس والقوة الحقيقية التى أومن بها هى شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

و«القـوة» المشار إليهـا فى حرب الكـواكب محاولة للبحث عن إلـه وقوى ميتافيزيقية غامضة.

حضارة تبحث عن بدائل للإيمان واليقين بالله سبحانه وتعالى.

ومن ثم قلت لكلوديا:

ـ هذا الفيلم لايعجبنـى ولايلزمنى «أنا أريد سينما تعالـج قضـايا سياسيـة وإنسانية (مـا أنا برضـه بنت الاشتراكية وتكافـؤ الفرص وعدالة التوزيع) ورأسى محشواً بهمـوم شعوب العالم الثالث. القهر السياسى، الدكتـاتورية، الفساد، الظلم ، العـدالة، الفقر، الصراع على السلطة.. أشياء من هذا القبيل.

قلت لكلوديا: مالى وأنا وحرب الكواكب.. خليها لكم!

خلينا فى حرب الرشوة، حرب لقمة العيش، حرب الجهل والمرض.

واكتشفت فيما بعد............

أن حرب الكواكب ، كانت رحمة وبنت حلال..

جاء الأستاذ «إى تى E.T هذا المخلوق القبيح من الفضاء الخارجى الـذى لم أفهم أبـدا سر اختيـار منظره المثير لـلاشمئـزاز، كنمـوذج للشخصية الأسطورية فى الثمانينيات.

أصبح E.T لعبـة العصر وفتـح البـاب على مصراعيـه لأجيـال سلاحف النينجـا والديناصـورات وحيوانات ضخمـة بلعاب أخضر

وعيون جـاحظة تثير الفـزع والقرف. لكن إى تـى عاوز يـروح بلده. الـوطن أعـز وأغلى مايملـك الإنسان. إنـه الانتماء، الجذور، التـاريخ الحضـارة، كل مايفتقـده المواطن الأمريكى. إى تى أصبح شخصيـة وطنية لأنه فتح جرح الانتماء التاريخى للوطن الأم.

الإنسان الأمـريكى اليوم مازال يحدثك عن الـوطن الأم. فهذا من أصل أيـرلندى، أو من أصل أفـريقى أسـود، وهذا من أصل إيطـالى، وذاك من أصل صينى أو مكسيكى، أو أسبـانى أو هنـدى أو بورتوريكو.

هناك أحياء كاملة فى المدن الكبرى خـاصة بجنسيات معينة وكأنها دول صغيرة قائمة وسط الأحياء الأمريكية.

فمن السـود فى هـارلم فى نيـويـورك، أو الحى الصينى أو حى البورتوريكو الـلاتينى، دول صغيرة من الصعب أن تجد فيها ساكن أمـريكى أبيض. وفى ولايات الجنـوب الأمريكى وفى كـاليفورنيـا على الساحـل الغربى تنـافح اللغة الأسبـانية اللغـة الإنجليزية، ويطـالب الأمـريكيون من أصل أسبـانى أن تصبح اللغة الأسبـانية هى اللغـة الأولى فى المدارس.

وطبعـا الجنسيـات غير الأوروبيـة الأنجلو سـاكسـونيـة المنشأ والأصل يعتبرون من الأقليـات. لكن هـذه الأقليـات كبرت مع مـرور

السنوات وبدأت تزحف ببطء لتآكل من نسبة السكان البيض، حيث أصبح الأمريكيون من أصل لاتينى يمثلون قوة إنتخابية عظمى.

وبمناسبة الأقليات التى اتعاطف معها (ما أنا أقلية) مازلت أتذكر يوم تقدمت بطلب تجديد الإقامة وكان علي أن أكمل استمارة معلومات تضم خانة

الاسم :

السن :

الجنسية:

الجنس : ذكر / أنثى

الجنس - (العنصر) ضع علامة أمام الجنس الصحيح.

أبيض قوقازى - أبيض انجلوساكسونى - أسود - بنى أصفر (من أصل صينى) بمبى (؟؟) (هل يقصدون الهنود الحمر ياترى) - آخرون!

سألت الموظفة : ياأختى ياذوق لو سمحت أنا لا بيضاء ولا قوقازية ولاساكسونية ولاسوداء ولاصفراء ولابرتقالية ولازرقاء ولاهندية .. يبقى أنا إيه؟

نظرت الموظفة الأمريكية القوقازية فى هدوء وامتعضت ثم تأملتنى طويلا وتنهدت وقالت بعد حيرة:

ـ أنت... أنت.. أنت آخرون.

شعرت بإهانة شديدة.

رفضت هذا التقسيم العنصرى للجنس البشرى وقلت لها بحزم.

ـ هذه تفرقة عنصرية.

نظرت فى دهشة وأجابت:

ـ عموما القانون يعطيك الحق فى رفض الإجابة على هذه الخانة وهذه بلد ديمقراطية.. نحن نخاف على مصلحتك وهذه معلومات تهمنا من أجل أمنك.. افرضى وقع لك حادث، كيف نتعرف على جثتك؟

قلت فى هدوء:

ـ أوكى، شكرا.. لن أوقع.. أنا لست «آخرون».. بدون هوية ولاشخصية ولاطعم ولا لون ولاتاريخ ولا حضارة.

أنا نفرتيتى

عمرى سبعة آلاف سنة..

الجنس إنسانة

والجنسية مصرية.

حرب التاكسيات الصفراء !

- اطلع يا أسطى على برودواى..

قلتها بكل ثقة لسائق التاكسى الأصفر الشهير الذى نراه فى الأفلام فى نيويورك، ولم أكن أعرف طقوس ركوب التاكسى النيويوركى. فما كدت أمد يدى لفتح باب التاكسى، وإذا بى أتلقى كتفاً قانونية طرحتنى أرضاً على رصيف نيويورك، والغريب أن الجانى فى هذه الجريمة الشوارعية، كان سيدة عجوز أنيقة نيويوركية مئة بالمئة.

ويتمتع راكب التاكسى الأصفر فى نيويورك بشروط محددة، أولاً : لابد أن يكون مفترياً أنانياً صفيقاً، ثانياً : من المسموح فى رياضة

ملاكمة التاكسيات استخدام شتى أنواع المصارعة الحرة والضرب المبرح واستخدام شنطة اليد بطريقة لولبية وضربة قاضية سريعة خاطفة فى رأس الراكب المنافس، مما يجعله يلف حول نفسه وربما يصاب بارتجاج فى المخ، المهم أن «ينط» المعتدى فى التاكسى بأقصى سرعة. وكل هذه حركات لابد من التدريب الشاق عليها للانتصار فى معارك التاكسى الأصفر فى شوارع نيويورك.

والسائق عادة يتمتع بحياد سويسرى ولا يهمه الطابور ولا الدور ولا الأولوية، المهم راكب وخلاص، فالراكب الحقيقى هو الدولار!

والصراع مع المرور فى شوارع نيويورك، يمكن أن نطلق عليه صراع الجبابرة والقانون الذى يحكم الناس والسيارات هو الشراسة والإيقاع السريع اللاهث. ولما كنت من زوار نيويورك فقط، ولم أتلق تدريباً خاصاً للسير فى الشوارع النيويوركية، وجئت من العاصمة واشنطن، بلد الشوارع الواسعة الرحبة والناس المؤدبة، رأيت الويل وسواد الليل فى نيويورك حتى استطعت بمعجزة أن «أنط» فى تاكسى أصفر، بعد أن أصبت بكدمات ورضوض فى معركة الفوز بتاكسى.

وجلست.. أتنهد وأشعر.. بنشوة الانتصار على محمد على كلاى وقلت: اطلع يا أسطى على برودواى.

نظر السائق البارد إلىّ... وكان الشارع محلك سر.. فى حالة ازدحام

وتكدس مرورى رهيب، وكانت الإشارة حمراء.. توقف التاكسى لمدة عشر دقائق ولم يتحرك قيد أنملة من موقع غزوة الركوب المشهودة، ولما تحول لون إشارة المرور إلى اللون الأخضر، نظر السائق البارد الذى اكتشفت أنه «جبِلة» أيضا، وقال: عشرة دولارات!

الرجل لم يتحرك سنتيمتراً واحداً بالتاكسى... قلت له : يامستر سواق... أنا عايزة أروح برودواى، شارع المسارح الشهير واحنا لم نتحرك من الإشارة.

أجاب السائق الجليدى : ما هو إنت فى برودواى! ياعسل! (كلمة على لسان كل من هب ودب)، لم أكن أعرف شوارع نيويورك بعد، لقد جعلنى السائق أجلس فى التاكسى لمدة عشر دقائق وطالبنى بالأتعاب، ولم يكلف نفسه أن يطلعنى على حقيقة موقعى على الخريطة النيويوركية.

دفعت الدولارات وأنا أستشيط غضباً. وعدت أدراجى سيراً على الأقدام (وأنا أتبع خريطة نيويورك) إلى استديو صديقتى التركية نائلة التى دعتنى للإقامة عندها فى نيويورك فى إجازة قصيرة.

وكان يجب علىّ أن أحفظ عن ظهر قلب ميثاق الشوارع النيويوركية. أول هام، قالت نائلة، ألا أحمل أى عملة ورقية إلا العشرة دولارات المتفق عليها للطوارىء (فى حالة أن تشهر فى صدرى مطواة

قرن غزال)، واستخدم دفتر الشيكات حتى فى التاكسى! وثانى هام، أن أعلق حقيبة يدى حول الرقبة وعبر الكتف اليمنى، ثم أضع المعطف فوقها، حتى لا يخطفها أحد.

ثالثا : يجب أن أرتدى ملابس متواضعة جداً، بنطلون جينز (من المستحسن أن يكون ممزقاً) وبلوفر أو معطفا كحيان جربان عفا عليه الزمان، حتى أعطى الانطباع بأننى «مش لاقية اللضى الأمريكى». وهذه لعبة نفسية للحماية الأكيدة فى شوارع من نار.

وممنوع منعا باتا ارتداء أى نوع من المجوهرات أو الساعات القيمة ولا حتى سلسلة ذهب يتيمة، لأن هذه الأشياء تثير طمع الطامعين!

يمكن استخدام مترو الانفاق مع الحرص الشديد، وأول قاعدة هى ركوب العربات المزدحمة فقط، الزحام ضمان وأمان من جرائم السرقة والنهب والاعتداء.

ومن الشروط الأساسية فى السير فى الشوارع النيويوركية إعطاء الانطباع بالشراسة والثقة.. أكدت لى نائلة أن الناس تخاف من بعضها، وكل إنسان مذعور داخله، فإذا رأيت شخصا مقبلا عليك من الجهة الأخرى، فلتكن واثق الخطوة تمشى شرساً.. ستجد أنه انكمش وتخطاك بسرعة.

وحين العـودة إلى العمارة، عليّ أن أتلفت يمينا ويســارا، وألا أفتح الباب إلا إذا كـان الرصيف من حـولى خاليـا، ثم أدلف داخل العمارة بسرعـة صاروخيـة. كل هذه الاحتيـاطات خشيـة أن يتبعنى مجرم، فيـدلف خلفــى إذا فتحت البـاب على راحتى. وبعـــد دخـول العمارة والاطمئنـان إلى دق جرس الإنـذار الأتومـاتيكى بـالشفرة الخاصـة بسكـان العمارة فقط، أتلفت يمينـاً ويســاراً قبل دخـول المصعـد ... وأتلفت يميناً ويساراً قبل دخول الشقــة.. وبعد دخول الشقة لابد من إغلاق البـاب بمفاتيح ومزاليج «فشر سجن طرة» ... وبـرضـه ألتفت يميناً ويساراً!

نيويورك هى مدينة الخوف والاحتياطات والتحذيرات.. مدينة بلا قلب. حكت لى نـائلـة عن يـوم أخـذت «علقة مـوت» فى ممـرات مترو الأنفاق، حين حاولت الدفاع عن حقيبـة يدها التى خطفها مجرم عتيد «متعود» على الشد والجذب، فلما قاومته نائلة المعتوهة وتحدت قاعدة الاستسلام الزؤام.. قفز بكل قوته وثقله على قدمها الصغير، فهرسه هرساً وتفتت عظامها الضئيلة، ورقدت على الأرض تصرخ من الألم ـ النـاس من حولها لا يعبأون ــ حتى عثرت على ابن حـلال (ليس من اصل نيـويوركى طبعـاً) قروى أمريكـى سـاذج سـاعدها حتـى باب المستشفى. وفى طـوارىء المستشفى سـالـوهـا : عنـدك تأمين ؟ فلما

أسقط فى يدها وهى وافدة كحيانة، وليس لديها تأمين صحى، رفضوا العلاج إلا إذا كان الدفع مقدماً.. لكن الصورة ليست بهذا السواد الكحل... كان هذا مستشفى تخصصياً جشعاً للغاية.. نقلت بعدها لمستشفى آخر قاموا فيه بعلاجها فى الطوارىء، وكفاية عليها!

بعد كل هذه الحكايات المشرقة عن شوارع نيويورك كان لابد أن أستمتع بإجازتى الثقافية..

الثقافة على الطريقة النيويوركية تعنى الدفع أو الطابور .. وكان طريق الطابور هو الطريق الاقتصادى.. وهذا يعنى الوقوف أربع أو خمس ساعات للحصول على تذكرة رخيصة.

ومن خفايا برودواى السوق السوداء، حيث تباع فيها تذاكر مسرحيات برودواى الناجحة وكأنها مخدرات.. فالحصول على تذكرة فى مقعد ممتاز فى مسرحية استعراضية ناجحة حتى لو كانت تقدم منذ عشر سنوات، من أحلام عشاق المسرح. لأن المسارح محجوزة مقدما لمدة سنة من الأفواج السياحية القادمة من أنحاء الولايات المتحدة، فالسائح الأول فى أمريكا.. أمريكانى! ولأمثالى من الفقراء والمساكين والطلبة المثقفين يوجد «التيكترون»، وهو كشك تذاكر أنيق فى قلب برودواى. يبيع التذاكر فى نفس يوم العرض بنصف الثمن (وهى التذاكر المرتجعة)، وكانت هذه هى ضالتى

المنشودة للدخول من باب جنة المسرح الأمريكي التجاري المذهل.

والوقوف في الطابور لعدة ساعات مفيد للغاية، حيث يتعرف الناس على بعضهم البعض ويدلون بالنصح حول أفضل مسرحية وأفضل عرض ويتبادلون النكات والساندوتشات، مما يعتبر «فسحة ثقافية على الرصيف».

ولقد أصبحت من أشد المخلصين للمسرح الأمريكي، وكنت أقود سيارتي في عطلة نهاية الأسبوع لمدة أربع ساعات ونصف من واشنطن إلى نيويورك، وأقف أربع ساعات على قدمي في الطابور، حتى أحصل على تذكرة متواضعة، ثم أعود أدراجي بالسيارة أربع ساعات ونصف أخرى إلى واشنطن.

ترى.. ماذا يستحق هذا العناء والجهد المضني والكفاح الثقافي؟

الفن طبعا.

وعلى مدار سنوات، ظلت رحلة الثقافة جزءا لا يتجزأ من حياتي الأمريكية، حيث أدمنت المسرح الاستعراضي الأمريكي.

وإذا كان الإنجليز هم عباقرة فن المسرح، فإن الأمريكيين هم سادة المسرح الاستعراضي.

ومازلت أذكر المسرحية الغنائية الاستعراضية «سويني تود».. وكنا قد تعلمنا أن المسرحية أو الفيلم الاستعراضي، عادة ما يدور

حول قصــة طريفــة وحدوتة لطيفــة، لا أبعاد اجتماعيــة ولا معاميق فلسفية، لأن قالب الاستعراض من موسيقى وغناء ورقص وإبهار لا يحتمل الموضوعات التراجيديــة الجادة. يعنى معظم أفلام عبدالحليم حافظ وفريد الأطرش ومحمد فــوزى الغنائية كانت فى إطار الأساس الدرامى للفكر الاستعراضــى أو كما يقول الأمريكان Boy Meets Girl أو ولــد يحب بنتــا.. ويعيشــان فى التبــات والنبــات، ويخلفــان صبيانا وبنات وتوتة توتة خلصت الحدوتة.

لكن الفن لا يمكن أن ينفصل عــن المجتمع، حتى لــو كــان «قطــاع خــاص وتجارى»، بالمنــاسبة المسرح الأمــريكى عمــوده الفقرى هــو القطاع الخاص.

كانت مسرحية سوينى تود «Sweeny Todd» من المسرحيات الموسيقيــة التى مازالت محفــورة فى ذاكرتى. المسرحيــة تدور حــول قصة ثأر «بــايت» بين حلاق القــرية ســوينى تود والمجتمع الشرس الفاسد. الصراع بين قــوى الخير والشر، حين يتصدى الإنسان الطيب للــدفاع عــن نفسه والانتقــام بيــده، لأن القانــون لم يحصل لــه على حقوقه.

فبعــد أن خطفوا ابنــة «سوينــى تود» واغتصبــوا زوجته، يقــرر ســوينى الانتقــام الــرهيب. ويذبــح زبائنــه بمــوسى الحلاقــة وهم

جالسون مستسلمون تماماً ليده «الخفيفة». وتسقط الجثة عن طريق ممر سرى إلى «فرن الخبز» فى الدور السفلى، حيث تقوم الفرانة أنجيلا لانزبرى بعمل الفطائر المحشوة باللحم من اللحم البشرى! (كل هذا بالغناء والرقص والفرفشة).

هذه الصورة الكئيبة المرعبة المقززة المثيرة للاشمئزاز تحولت إلى مسرحية استعراضية رائعة، وصدقوا أو لا تصدقوا كوميدية ضاحكة. «وهم يضحك وهم يبكى»!

ومن المفارقات الغريبة أن البطل السفاح ينتقم من العدالة الزائفة الفاسدة، لأن الذى انتهك عرضه وخطف ابنته هو القاضى، ونحن أمام موقف إنسانى محير .. حين يعجز القانون عن حماية الإنسان، فيقرر الإنسان أن يكون هو القانون ويمسك بيده بمقاليد العقاب والثواب.. والانتقام الرهيب. وهذه هى نفس قصة الكوميديا السوداء المصرية «ريا وسكينة»، مما يجعلنى أتساءل: خير ياجماعة، هل الفساد ظاهرة عالمية فى سلك القضاء، أم أن قضية العدالة والقصاص وسيادة القانون معضلة إنسانية متكررة فى كل زمان ومكان؟

وفتحت «سوينى تود» الكوميديا السوداء النكدية الباب على مصراعيه لهذه النوعية القاتمة السخرية من المسرح الاستعراضى. وشاهدنا «شبح الأوبرا» وهى من أعظم المسرحيات الموسيقية التى

تحكى قصة غرام مؤلف موسيقى مشوه الوجه يضع قناعا على وجهه طوال المسرحية وحين يكشفه لنا.. ياحفيظ يامغيث نرى براعة الماكياج فى اختراع البشاعة مجسدة شحما ولحما.. والمؤلف المشوه يجوب كواليس الأوبرا ويعيش فى سرية مطلقة يؤلف الموسيقى للبطلة الجميلة التى تعتقد أنه شبح موهوب!!

ناهيك عن الديكورات الرائعة والتكاليف الرهيبة، إلا أن معضلة أن يقبل نجم معروف دورا يخفى فيه طلعته البهية وراء قناع ومن وراء قناع مخيف ومرعب شيئاً يدعو للتأمل! ترى هل يقبل أى نجم من نجومنا مثل هذا الدور الرائع من أجل الفن ويضحى بحلاوته وجماله فى عين الجمهور؟! فشر!

وإذا كان المسرح يعكس المزاج والمناخ السائد فى المجتمع من عنف وجريمة ونفوس مريضة فلايمكن أن يتجاهل الفن المرحوم إرنست وحزب المرحين. كانت من أنجح المسرحيات الاستعراضية على خشبة مسارح برودواى مسرحية La cage aux folles وهو عنوان فرنسى لفيلم فرنسى تحول إلى مسرحية استعراضية ويدور حول قصة حب اثنين من المرحين أمام مجتمع الأخلاق والفضيلة.. ومن المفروض أن تنصب السخرية على الأستاذ المرح وصديقه، لكن المنطق الأمريكى يسخر من مجتمع الفضيلة والأخلاق «المعقد» ويصفق

لـرجال فى مـلابس نساء ويتعـاطف مع البطلة «عفـوا.. البطل فى زى بطلة.. حاجة تلخبط»!

ومن اللحظـات التى لا أنسـاهـا فى نـزواتى المسرحيـة، مسرحيـة «أطفال... أقل شـأنا» وتتناول قصة فتاة صماء بكماء وأستاذها الذى أحبها وعلمها وساعدها على مواجهة عجزها وقهر الواقع الأليم. وهى مسرحية تراجيـدية تمس شغاف القلب من فرط إنسـانية الموضوع، وخاصة أن البطلة كانت صماء بكماء فى الواقع.

وعندمـا انسدل الستار وقف جمهـور الحاضرين يصفق تصفيقاً حاداً لم أشـهد لـه مثيلا من قبل.. والبطلة الصماء التى لا تستطيع أن تسمع هدير التصفيق، تحيى الجمهور وقد ارتمت على خشبة المسرح تمتص تردد ذبـذبات صوت التصفيـق الذى لا تسمعه «وكـانت هذه الـوسيلـة التى حـاول بها الأستاذ تـوصيل الإحسـاس بـالموسيقى لطالبته الصماء فى المسرحية».

والجمهور يصفق فى جنون ودموع البطلـة تغرق خشبة المسرح.. دموع الفـرح والنجاح والدمـوع تغرق وجهى ووجـوه من حولى من فرط التأثر بهذا المشهد الإنسانى المهيب الرهيب.

خيبة "الخلاص

يوم الأحد صباحا.. يوم الإجازة وعطلة نهاية الأسبوع المقدسة حيث يذهب المتدينون الأمريكيون إلى الكنيسة.

وهناك فئة كبيرة جدا من الأمريكيين الملتزمين دينيا والمواظبين على رحلة الأحد الصباحية الأسبوعية.

والتليفزيون يشارك فى هذا المهرجان الدينى الأسبوعى طوال ساعات صباح الأحد.. وإياك أن يظن أحد أن المسئولين عن التليفزيون جماعة من المؤدبين المتدينين المخلصين.. فالتليفزيون الأمريكى غير تابع للحكومة بل شركات خاصة تهدف إلى الربح وإلى الربح تهدف.

وهذه المحطات تؤجر الهواء صباح الأحد لكبار رجال الدين

المسيحى.. وبالملايين «يعنى إعلان مدفوع الأجر».

وإياك أن يظن أحد أن رجال الدين يدفعون هذه الملايين حبا فى الفضيلة والأخلاق والالتزام الدينى.. فرجال الدين أيضا يهدفون إلى الربح.. وإلى الربح يهدفون.

كنت أجلس أمام التليفزيون فى ذهول صباح الأحد، أستمع إلى خطبة «الأحد» التى تحولت إلى عرض مسرحى عجيب، يتحول فيه رجل الدين إلى بائع أرثر ميللر المتجول. يبيع الحلم ويبيع الأمل ويبيع الثواب ويبيع المستحيل لملايين المشاهدين.

القس من هؤلاء «يرتدى بدلة أنيقة طبعا» يظهر على خشبة المسرح بصورة درامية والموسيقى تعزف والكورال يولول والحاضرون يصفقون للنجم الدينى... فشر عادل إمام.

ويبدأ القس فى إلقاء خطبة مثيرة، يبكى ويضحك ويصرخ وينادى ويهمس ويجرى من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. استعراض مثير لأفكار متخلفة مغموسة فى العسل.

ويدعو القس «الكفرة» إلى طريق الخلاص.. ويعد الإنسان التعبان الزهقان المطحون بالخلاص على يده.. وتأتى صرخات من الجمهور.. أنقذنى يا يسوع خلصنى.. وتسرى عدوى الهستيريا الدينية بين جمهور الحاضرين. ثم تأتى اللحظة الحاسمة.. حيث يأتون بمعجزة

ومقعدين «ومكسحين». «على كرسى بعجل» فيمد القس كفه ويدفع له العاجـز أو المريض على جبهته ويقـول له سـوف أخلصك من قيودك وهمومك ومع كل «خبطة» يطرح فيهـا الضحية أرضا، ثم فجأة يقف الكسيح على قدميـه ويصرخ.. معجزة.. معجـزة لقد شفيت، ويجرى على المسرح مثل الرهوان والناس تبكى وتصـفق وتولول :

هالولويا.. هالولويا ...

الأعمى يفتح، والأصم يسمع، والكسيح يهرول .. ومعجـزة وراء معجزة «بخبطة» واحدة من يد القس الذى ما يلبث أن يقول:

شايفين المعجـزات.. والعظمة.. أرسلوا التبرعات فـورا.. حالا.. فى التـو واللحظة.. امسـك التليفون وتبرع بـالبطـاقـة الائتمانية، فيـزا، أمريكان اكسبريس.. أرسل شيكا.. المهم تبرع دلوقت حالا.. ساعدنا.. نحن فى حاجة إلى أموالك حتى ننقذ البشرية. وتنزل على الشاشة أرقام تليفونات التبرع، والقس المحترم يحث المشاهد على التبرع الفورى.

ملايين الـدولارات يجمعها أصحاب «خطبـة الأحد» بحجـة إنقاذ البشريـة من آثـام الحضـارة الحديثـة.. يبيعـون الخلاص الـوهمى بالدولار. ومن ثـم تحول الدين على شاشة التليفزيـون إلى مُنتَّج يباع ويشـترى ويعلن عنه مثل المعلبات المحفوظة.. والقس الشـاطر هو الذى يحظى بتعاطف وتبرعـات أكثر. والغريب أن الناس يصـدقون أن هذا

زمن المعجزات التليفزيونية على الرغم من أنها مسرحية رديئة ساذجة مدبرة مع سبق الإصرار والترصد.

التطرف.. تطرف فى كل زمان ومكان، ولا يوجد أسوأ من مدعى التدين وممن يستغل الدين من أجل الثراء وجمع الأموال.. وياما قرأنا فى الصحف عن فضائح هؤلاء القسس من نجوم صباح الأحد وقد ثبت أن بعضهم من اللصوص والنصابين والأفاقين، سرقوا أموال الفقراء والسذج بالخديعة وبيع الوهم ليركبوا الطائرات الخاصة ويملكون القصور والأراضى الشاسعة ويعيشون حياة الأباطرة والملوك.

ومن عجائب صباح الأحد المصارعة الحرة..

أول مرة شاهدت فيها مباراة على شاشة التليفزيون «وهبد» فيها المصارع زميله وألقى به بكل شراسة على أرض الحلبة ثم انقضى عليه يلوى ذراعه حتى الكسر ويخنقة حتى النزع الأخير، صرخت:

ـ يافيكى.. الحقوا الرجل سيموت.. إنه يقتله عينى عينك.

أصابتنى حالة من الذعر ومن رياضة القتل العلنى، والناس تصفق وتصفر مشجعة ومهللة.

ضحكت فيكى ملء شدقيها قائلة:

ـ لاتنزعجى يا عزيزتى، هذه أشياء متفق عليها.. إنها تمثيلية

محبوكــة حتى يتأثر الســذج من أمثالك.. تمثيلية تحكمهــا الرهــانات والمقامرة على الفائزين وتذاكر تبــاع بالآلاف ومباريات تذاع بملايين الدولارات.. إنـها تجارة فى تجارة.

الدين تجارة، والـرياضة تجارة، وطعــام القطط والكلاب تجارة.. ماذا بقى لنا إذن من الإنسانية؟

الحادثة التي جرت

كانت مفاجأة لا تنسى..

استيقظت فى السابعة صباحاً من يوم شتاء واشنطونى بارد.. فإذا بالأرض مفروشة ببساط أبيض ناصع شاهق.. مشهد رومانسي رائع.

كان الثلج يغطى كل شيء بعباءة قطنية بيضاء ماكرة ساحرة.. تسمرت أمام النافذة مبهورة بذلك النقاء الممتد، وصوت مذيع النشرة الجوية يحذر بأن الأمور ستزداد سوءا خلال ساعات وينصح بعدم محاولة الخروج من باب البيت إلا للضرورة القصوى..

المدارس والجامعات أغلقت أبوابها اليوم وانحنت فى أدب جم أمام العاصفة الثلجية.

وعلى الرغم من أن درجة الحرارة كانت خمس عشرة تحت الصفر، إلا أن درجة حرارة ضميرى المتيقظ كانت فى درجة الغليان. قررت الذهاب إلى المكتب من باب الالتزام والانتظام، والشعور بالمسئولية..

وتهورت ....

واكتشفت فيما بعد ....

أن قيادة السيارات أثناء عاصفة ثلجية لها أصول وقواعد. لكن بعد إيه؟ كنت أقود سيارتى بحرص شديد، فالجليد تحت عجلات السيارة مثل قشر البيض، أو القيادة على لوح من زجاج.. وكان موكب السيارات على الطريق السريع يعد على الأصابع.. السيارات تسير الهوينى ولابد أن يكون وراء كل سيارة قصة، لابد أن يكون طبيبا أو مجنونا مخبولا مثلى كى يقود سيارته فى مثل تلك الظروف الجوية المرعبة.

ولم أكن أعرف ولا عندى فكرة عن الحيل اللولبية فى فن القيادة على الطرق الجليدية.. وفجأة وجدت السيارة تدور وتلف و«تبرم» بى كما النحلة وأنا على عجلة القيادة فى وضع «دوخينى يالمونة».. السيارة تزحلقت على الجليد وفقدت القدرة على التحكم فيها، والسيارة تدور بسرعة جنونية صاروخية حول نفسها، لحظتها «شفت الموت بعينى».. وأشهد أن لا إله إلا الله وإن لله وإن إليه

راجعون.

وطاخ فى السيارة التى أمامى.. التى دخلت بدورها فى التى أمامها وهكذا.. دخلت قافلة الهوينى فى بعضها، وفى هذه اللحظة المشهودة (اكتشفت فيما بعد) أنه إذا ضغط الإنسان بقدمه على «الفرامل» فهذا يعنى أن السيارة ستمعن فى العند وتنزلق على الجليد ولن تتوقف... وتخيلوا سرب السيارات المتزحلقة المتداخلة ولا «أجدع» لعبة ملاهٍ مثيرة، والسيارات تعانق بعضها بعضا حتى توقف الركب تماما، بعد أن كاد قلبى أن يتوقف.. وجدت الدماء تسيل من جبهتى ومن أنفى، لكن لسانى كان يلهج بالشكر.. الحمد لله.. الحمد لله جت سليمة. من خلف زجاج النافذة ظهر فجاة وجه متجمد جليدى لضابط شرطة كما انشق الجليد عنه، لا أدرى متى ومن أين جاء! سألنى فى هدوء :

ـ انت أوكى؟

ـ أوكى والحمد لله ياحضرة الضابط.. قدر ولطف.

ـ هل أطلب سيارة إسعاف؟

ـ لأ.. الحمد لله ياحضرة الضابط.. أصل أنا عندى شغل ومستعجلة .. قدر ولطف.

ـ طيب.. الرخصة لو سمحت!

ـ رخصة .. الحمد لله ياحضرة الضابط .. اتفضل.. قدر ولطف.

ـ المخالفة الأولى السرعة أكثر من ١٥ كيلو من الساعة.

ـ سرعـة .. ده أنا أقود السيـارة كما السلحفاة يـاحضرة الضابط، سرعة ومخالفة.. الحمد لله قدر ولطف.

ـ المخالفة الثانية الإهمال واللامبالاة فى القيادة.

ـ إهمال ولامبالاة.. تشكر ياحضرة الضابط.. قدر ولطف.

ومضيت فى طريقى تـاركة خلفى سرب السيارات المتعانقـة.. وأنا أسوق على مهلى.. أسوق.. وما بين طـرفة عين وغمضتها... ولم يمض على الحادث سوى دقيقة، دارت السيارة وبرمـت كالنحلة مرة أخرى بسرعـة هيستيرية ثم تـزحلقت فى الاتجاه العكسى واتجهت بسرعـة كونكوردية نحو السيارات المقبلة... وبوم طاخ.

ـ انت أوكى؟

ـ كم مخالفة هذه المرة ياحضرة الضابط.. هات من الآخر؟

ويبدو أننى «صعبت» على حضرة الضابط، فأكد لى أنه لامخالفات هذه المرة وأنه سيصحبنى بسيارتـه حتى باب المكتب.. وختم حديثه قائلا:

إلى اللقاء فى المحكمة.

عندى قضية ..

المسألـة ليست مجرد مخالفـة، بل تهمـة، جـريمـة يحاكم عليهـا

القانـون. الإهمال فى القيـادة، تهمـة ومحكمـة.. وحكم وسـوابق.. وامصيبتاه!

نصحتنى «فيكى» أن أرتـدى حلة أنيقـة أمام المحكمـة، فلابـد من إضفـاء معـالم الاحترام والمسئـوليـة على شخصيتى أمـام سيـدنـا القاضـى. والغريب أن «السفاح مـن دول» يكون قتل له عشرين قتيلا وأكل عظمهم بعد لحمهم، ويصر المحامى على أن يحضر إلى المحكمة فى قمة الأناقة، لأن سيكولـوجية المظهر الأبهة يحسب لها ألف حساب!! منطق لم أقتنع به.

ما علينا.. تأنقت لسيدنـا القاضى ودخلت المحكمة بقدمى اليمنى وكنت أرتعد رعباً.. أنا متهمة.. وعندى قضية.

فى قـاعـة المحكمـــة جلست أضرب أخماسـا فى أسـداس، همس لى جارى:

ـ تهمتك إيه؟

ـ مرور يامستر.

ـ عندك محامى؟!

ـ محـــامى ؟ (وهل يســـتحق الموضوع محــامى).. لا يامستـر معنديش.

ـ أنا محامى.. اشرحى له التهمة بسرعة وأنا حاضر معك.

ـ حاضر عن المتهمة (هو انت اسمك إيه) ياحضرات المستشارين وهكذا أصبح عندى الآن ـ قضية ومحام..

وجدت حضرة الضابط الذى اضطهدنى وظلمنى وجرجرنى إلى المحاكم يقف إلى جانبى أمام سيدنا القاضى ويقسم بالله العظيم بأن يقول الحق ولاشىء غير الحق.

سأل سيدنا القاضى: هل معك محام ؟

هرع المستر محام إلى المنصة وهو يؤكد : حاضر عن المتهمة

واكتشفت فيما بعد ....

أن المحامى «الاكسبريس» يلتقط أمثالى من الغلابة والمساكين بدون سابق معرفة ويتولى القضية فى دقائق.

اعترضت بشدة، قلت والدموع تنهمر على وجهى:

ـ مظلومة يابيه مظلومة.

أنا لا أريد محامياً، أنا أريد أن أدافع عن نفسى بنفسى، وماحك جلدك مثل ظفرك (ولم يفهم القاضى الترجمة الرديئة لهذه المقولة وما علاقة الأظافر بالقضية)..

مظلومة ياسعادة القاضى، الطريق كان مثل المرآة المشطوفة، قشر بيض ياسعادة القاضى، والسيارة تزحلقت .. بنى آدم يتزحلق على قشرة موزة، ألا تريد من سيارة أن تتزحلق على قشرة بيضة؟! وهل

ينزلق الإنسان بخاطره.. مقدر ومكتوب، قسمة ونصيب ياسعادة القاضى. وأنا أعرف الطريق الصحراوى والطريق الزراعى والطريق المسدود، لكنى شرقية صحراوية قاحلة، لم أتعرف على الثلج إلا فى الثلاجة من قبل، لم أسعد بمقابلة جليدية ولم أتشرف بالسلوكيات الباردة. أنا قروية ساذجة وافدة من درجة حرارة الظلم والاضطهاد وحضرة الضابط ظلمنى.. طيب اسأله كده.. هل كان من الممكن أن ينزلق هو الآخر أم لا.. قسمة ونصيب يابيه.

ظل سعادة القاضى يفكر، ثم سأل حضرة الضابط عن حالة الطقس فى ذلك اليوم الأغبر، ثم سأله (صدقوا أو لا تصدقوا) سؤالى:

ـ هل كان من الممكن أن تنزلق سيارتك فى نفس الظروف الجوية حسب قانون الاحتمالات أم لا؟ ولو حدث، هل يمكنك التحكم فى السيارة؟

أجاب حضرة الضابط المفترى بصدق شديد (حلف اليمين بقى)بأن المسألة قسمة ونصيب وأنه كان من الممكن أن يحدث له ما حدث لى بالضبط، لأن الظروف الجوية الثلجية غير مضمونة العواقب. وعلى الفور.. نطق سعادة القاضى بالحكم :

ـ براءة .. تسقط التهمة عن المتهمة ويطلق سراحها!

ويحيا العدل !

نظـرت إلى المحـامى الحشرى فى عجـرفـة وأشرت إلى أظـافـرى .. وكررت الترجمة الرديئة.. ماحك جلدك مثل ظفرك.. يامستر!

يومها شعرت بأننى كسبت البريمـو، طعم العدل أعظم من مليون دولار بالفعل.

علقت «فيكى» : مبروك البراءة.. ماشعورك اليوم؟

ـ أشعر كما لو كنت «مليون دولار»

I Feel Like a Million Dollar

هذا القول الأمريكى المأثور اكتسب معنى أعمق وأعظم، لأنى اليوم تذوقت طعم الحق والعدل وهو أجمل مليون مرة من مليون دولار!

رقم الإيداع ١٦٤٩ / ٩٥
I.S.B N 977- 09 - 0264 - 0

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس ٣٩٣٤٨١٤

بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣